شعر بيت المقدس في عهد صلاح الدين الأيوبي

"دراسة أدبية تاريخية"

The Poetry of Jerusalem during the Reign of Salah al-Din

"Literary Study in its History"

إعداد الطالب

عمرو عبدالله حسين العملة

إشراف الأستاذ الدكتور

سعود محمود عبد الجابر

رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب والعلوم

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب والعلوم

جامعة الشرق الأوسط

2013-2012

ب

تفويض

أنا عمرو عبدالله حسين العملة أفوض جامعة الشرق الأوسط بتزويد نسخ من رسالتي ورقيا والكترونيا للمكتبات، أو المنظمات، أو الهيئات والمؤسسات المعنية بالأبحاث والدراسات العلمية عند طلبها.

الاسم : عمرو عبدالله العملة

التاريخ: ٢٠١٣/٦/٢٩

التوقيع : .....

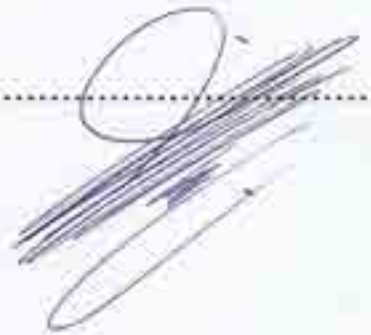

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة وعنوانها: شعر بيت المقدس في عهد صلاح الدين الأيوبي
(دراسة أدبية تأريخية)

وأجيزت بتاريخ: 2013/7/31

أعضاء لجنة المناقشة:

	التوقيع
1- الأستاذ الدكتور: سعود محمود عبدالجابر رئيساً ومشرفاً	.....
2- الأستاذ الدكتور: عبدالرؤوف زهدي عضواً	.....
3- الأستاذ الدكتور: محمد الخلايلة عضواً خارجياً	.....

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر و تقدير

لله الحمد من قبل ومن بعدُ، وبعدُ...

عرفانا مني بجميل من كان له الدور الأكبر في توجيهي وإرشادي إلى اختيار موضوع شعر بيت المقدس في عهد صلاح الدين الأيوبي (دراسة أدبية تأريخية)، وفتح لي مغاليق الأبواب وأسرارها، أتقدم بالشكر والتقدير للأستاذ الدكتور سعود عبد الجابر، الذي أشرف على هذه الرسالة ومنحني الكثير من وقته وجهده حتى خرجت هذه الرسالة، بهذه الصورة.

وأتقدم بالشكر الجزيل للأساتذة الأجلاء، أعضاء لجنة المناقشة، لما بذلوه من جهد في قراءة رسالتي، ولما يقدمونه من توجيهات وآراء تسهم في تقويم ما يبدو فيها من عوج ومعالجة ما بها من قصور، حفظهم الله، وبارك فيهم.

وأتقدم بالشكر الخاص لأساتذتي في كلية الآداب في جامعة الشرق الأوسط، قسم اللغة العربية، وأخص بالذكر منهم الأستاذ الدكتور عبد الرؤوف زهدي والدكتورة جمانة السالم لما أسدوه لي من توجيه ونصح وإرشاد، مما ساهم في إخراج هذه الرسالة على الوجه الذي هي عليه، بارك الله فيهم، وجزاهم عني خيراً.

ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر والعرفان إلى كل من أعان هذه الدراسة بكلمة، أو نصيحة أو تشجيع أو دعاء شدّ من عزيمة الباحث من قريب أو بعيد.

أسأل الله أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن ينفعنا به، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين.

الإهداء

إلى فلسطين الحبيبة

إلى والديّ حفظهم الله ورعاهم

إلى كل إخواني وأهلي وأصدقائي الأوفياء

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الغلاف	أ
التفويض	ب
قرار لجنة المناقشة	ج
شكر وتقدير	د
إهداء	هـ
فهرس المحتويات	و – ز
الملخص باللغة العربية	ح
الملخص باللغة الإنجليزية	ط
الفصل الأول:	1
المقدمة	2
مشكلة الدراسة	4
أهداف الدراسة	5
أهمية الدراسة	6
حدود الدراسة	6
المصطلحات	7
منهجية الدراسة	8
الفصل الثاني: الإطار النظري والدراسات السابقة	9
الفصل الثالث:	14
حياة صلاح الدين الأيوبي	15
تاريخ مدينة القدس حتى سقوطها بيد الصليبيين	32
صلاح الدين الأيوبي والقدس	37
الفصل الرابع ويشتمل على أربعة مباحث :	48

صدى سقوط بيت المقدس في الشعر في عهد صلاح الدين.	49
شعر الاستنهاض والاستنجاد والدعوة لتحرير بيت المقدس.	55
صدى تحرير بيت المقدس في الشعر في عهد صلاح الدين.	75
الدراسة الأدبية لشعر بيت المقدس في عهد السلطان صلاح الدين.	92
النتائج والتوصيات	119
فهرس المصادر والمراجع	121

شعر بيت المقدس في عهد صلاح الدين الأيوبي

(دراسة أدبية تأريخية)

عمرو عبدالله حسين العملة

المشرف الأستاذ الدكتور: سعود محمود عبد الجابر

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى دراسة شعر بيت المقدس في عهد صلاح الدين الأيوبي "دراسة أدبية تأريخية"، وقد قسمت هذه الدراسة إلى أربعة فصول، تناول الفصل الأول مقدمة الدراسة، وأهميتها، ومحدداتها، ومنهجيتها، وتناول الفصل الثاني إطارها النظري ودراساتها السابقة وتضمن الفصل الثالث: حياة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، وتاريخ مدينة القدس حتى سقوطها بيد الصليبيين وتحرير صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس, أمّا الفصل الرابع فقد قسّم إلى أربعة مباحث، شمل المبحث الأول صدى سقوط بيت المقدس في الشعر في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، وتناول المبحث الثاني شعر الاستنهاض والاستنجاد والدعوة لتحرير بيت المقدس في عهد صلاح الدين الأيوبي، وتناول المبحث الثالث صدى تحرير بيت المقدس في الشعر في عهد صلاح الدين الأيوبي ثم تناولت في المبحث الرابع والأخير الدراسة الأدبية لشعر بيت المقدس ويليه النتائج والتوصيات وقائمتي المصادر والمراجع.

The Poetry of Jerusalem during the Reign of Salah al-Din

"Literary Study in its History"

Student: Amr Abdullah Hussein Al-Amleh

Supervisor: Dr. Saud Mahmoud Abd Al- Jaber

Abstract

This study aims to examine the poetry of Jerusalem during Salah Al-din epoch, "literary historical study".

The study has divided into four chapters; the first chapter discusses the introduction of the study, its importance, its determinants and its methodology.

The second chapter discusses the theoretical framework and past studies.

Chapter III included: Sultan Nasser Saladin life, the history of Jerusalem city until its occupation, and the liberalization Jerusalem by Saladin. The fourth chapter was divided into four topics: Section I talked about the impact of occupation of Jerusalem on the poetry in Saladin time, second section covered the poetry involved in instigation people and call them to free Jerusalem, Section III talked about the impact of liberation of Jerusalem on the poetry in Saladin time, fourth and final section dealt with literary study of the poetry of Jerusalem, followed by the findings and recommendations and my sources and references.

الفصل الأول

أولا: خطة الدراسة.

تمهيد:

تعرضت الأمة الإسلامية في القرنين الخامس والسادس الهجريين، لهجمة صليبية لعلها كانت من أخطر المحن التي واجهتها هذه الأمة في صراعها مع أعدائها، وقد هيأ الله لها بعد طول معاناة القيادة الصالحة التي تصدت للأعداء متمثلة بأبطالها الثلاثة، عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين زنكي ثم صلاح الدين الأيوبي، وتركز هذه الدراسة على فترة متميزة في عهد صلاح الدين الأيوبي، إذ واكب أدب هذه الفترة شعراً ونثراً، المعارك الدائرة بين المسلمين والغزاة، فقد تصدى الأدباء لاسيما الشعراء منهم لمواجهة الأعداء ومقاومتهم بالكلمة الحيةالمعبرة والمؤثِرة، لكي يبعثوا في نفوس أبطال الأمة والمسلمين روح الجهاد، ويستثيروا هِمَمَهُم في مواجهة الغزاة والدفاع عن بيت المقدس.

وبعد تولي صلاح الدين حكم بلاد الشام ومصر بعد وفاة نور الدين زنكي وبعد انتصاراته المتتابعة على الغزاة الصليبيين، بدت الدعوة إلى تحرير بيت المقدس جلية، من خلال القصائد التي تغنى الشعراء فيها بالانتصارات التي حققها القائد الفذ، مما أدى إلى دعوة أخرى إلى الوحدة بين مصر والشام قادها الشعراء أيضاً من خلال رثائهم الأبطالَ، والأشعار التي قيلت تعريضاً بالحكام الذين تعاونوا مع الفرنج، والرسائل الأدبية التي بعثها القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني مما أجلى الحديث عن الوحدة بين المسلمين خير جلاء.

ولقد قيض الله سبحانه وتعالى لصلاح الدين الأيوبي النصرَ في معركة حطين سنة583هـ، إذ هزم جيوش الصليبيين هزيمة ساحقة تمكن على إثرها من تحرير بيت المقدس وتخليصه من ربقة الأسر مما أثار كوامن الشعراء ودفعهم للتغني ببطولات القائد المنتصر والحث على متابعة فلول الصليبيين وتخليص البلاد كافة من شرورهم ورجسهم.

ولقد ترددت أصداءُ الفتح المقدسي في شعر الكثير من الشعراء المسلمين أمثال العماد الأصفهاني وابن سناء الملك وابن الساعاتي وابن شمس الخلافة وعبد الله الحموي وغيرهم.

حيث عدهُ الشعراء بمثابة الهجرة الثانية التي يؤرخُ بها، وربطوا بينه وبين الفتوح الحاسمة في التاريخ تعظيما له، وعدوه أيضا مجددا لأيام القادسية لجمال وقعة النصر في صدور المجاهدين.

وأشاد الشعراء ببطولة القائد صلاح الدين ودأبه وإصراره على مقاومة الغزاة حتى تحرير آخر شبر من أراضي المسلمين، لحماية دين الله والذودِ عن قيمه ومُثلِه.وسيدرس الباحثُ أنماطاً من شعر بيت المقدس في ذلك العهد والموضوعات التي طرقها الشعراء، والخصائص الفنية المميزة لذلك اللون من الشعر، وبنية القصيدة القدسية.

مشكلة الدراسة

تكمن ممشكلة الدراسة في الإجابة عن الأسئلة التالية:

س1– ما المجالات التي طرقها شعر شعراء بيت المقدس في عهد صلاح الدين؟

س2– ما أثر تحرير بيت المقدس في شعر الشعراء؟

س3– كيف استطاع هذا اللون من الشعر أن يبث روح الحماسة والجهاد والوحدة في نفوس المسلمين؟

س4– ما السمات الفنية المميزة لشعر شعراء بيت المقدس في عهد صلاح الدين؟

أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة الى مايلي:

1- الاطلاع على الواقع الأدبي في هذه الحقبة من خلال دراسة نماذج من الشعر المقدسي آنذاك.

2- بيان دور شعر شعراء بيت المقدس في نهضة الأمة في عهد صلاح الدين الأيوبي.

3- بيان المجالات المتنوعة التي طرقها هذا اللون الشعري.

4- توضيح الخصائص الفنية التي تميز بها الشعر المقدسي آنذاك.

أهمية الدراسة

تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تتناول شعر شعراء بيت المقدس في حقبة زمنية متميزة حيث تعرضت الأمة لمحن وأخطار عظيمة، فكان شعر الجهاد عاملاً أساسياً في التصدي لهذه الأخطار، فقد شهد ذلك العصر سقوط بيت المقدس في يد الصليبيين كما شهد تحريره على يد القائد صلاح الدين الأيوبي.

وهذه الأحداث العظيمة أثارت مكامن الشعراء وإبداعاتهم وارتبطت بالشعر الحماسي ارتباطاً وثيقاً.

وتتمثل أهمية هذه الدراسة في أنها ستتناول بالدراسة والتحليل شعر شعراء بيت المقدس في عهد صلاح الدين الأيوبي من حيث الموضوعات التي طرقها الشعراء والجوانب الفنية المتمثلة في ذلك اللون من الشعر، وبهذا إضافة للمكتبة العربية كي يفيد منها الدارسون والباحثونَ في مجال الأدب في عهد الحروب الصليبية.

حدود الدراسة

تتحدد هذه الدراسة بدراسة شعر شعراء بيت المقدس في عهد صلاح الدين الأيوبي إبان الحروب الصليبية التي امتدت من569هـ إلى 589هـ.

المصطلحات:

بيت المقدس:

تقع مدينة القدس في وسط فلسطين تقريبا، إلى الشرق من البحر المتوسط على سلسلة جبالٍ ذات سفوحٍ تميل إلى الغرب وإلى الشرق أرضها وضياعها وقراها كلها جبال شامخة وليس حولها ولا بالقرب منها أرض وطيئة البتة، زروعها على رؤوس الجبال، أما المدينة على فضاء في وسط تلك الجبال وأرضها كلها حجر من الجبال التي هي عليها وفيها أسواق كثيرة وعمارات حسنة، وأما الأقصى فهو في طرفها الشرقي نحو القبلة أساسه من عمل داود عليه السلام [1].

الأدب:{أدب} الأَدَبُ: الذي يتأدبُ به الأديبُ من الناس، سُميَ أدباً لأنه يأْدِبُ الناس إلى المحامد[2].

الأدب: مجموعة الآثار المكتوبة التي يتجلى فيها العقل الإنساني بالإنشاء أو الفن الكتابي، **والدراسة الأدبية:** الفنون الأدبية التي يُعنى بدراستها الأدب العربي من شعرٍ ونثرٍ وأفكارٍ وأخيلةٍ وعواطفٍ وروائع فنية سامية دراسة توضح هذه الفنون وتصور مدى الجمال الفني الذي بدوره يقوم على تقليد الطبيعة تقليداً إيحائياً تمثيلياً حياً[3].

---

[1] بلادنا فلسطين : 248

[2] لسان العرب، مادة أدب

[3] تاريخ الأدب العربي: 33

منهجية الدراسة

سيعتمد الباحث في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي والمنهج الجمالي، من خلال دراسة النصوص الشعرية للشعراء في عهد صلاح الدين الأيوبي والوقوف على أهم الخصائص الفنية التي تميز بها شعر شعراء بيت المقدس في تلك الحقبة.

الفصل الثانـي

الإطار النظري والدراسات السابقة

الإطار النظري

تتناول هذه الدراسة بالبحث والتحليل شعرَ بيت المقدس في عهد صلاح الدين الأيوبي، إذ واكب الشعر في ذلك العهد الدعوة للجهاد وتحرير بيت المقدس وتخليصه من أيدي المحتلين الصليبيين، ولاشك أن هناك بعض الدراسات التي تناولت بعض الجوانب الجزئية من هذا الموضوع ومن هذه الدراسات مايلي:

بدوي (1972)

يتحدث الكاتب عن الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام واصفا البيئة التي شكلت الأدب في هذه الحقبة وجوانب نشاطاتها المتعددة كما قدم مواد البناء التاريخي الكامل ذاكراً المعالمَ الدينية والدنيوية الكبرى للعلوم آنذاك، مع الوقوف عند كل علم من العلوم العامة وعلمائه دون الوقوف عند شعراء هذه الفترة أو دراسة أشعارهم.

الهرفي (1979)

تحدث الكاتب عن شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام عامة وعن أهم شعراء تلك الحقبة والخصائص المميزة لشعر الجهاد وظواهره الفنية وأهم خصائص هذا الفن، لكن دراسته عن شعر الجهاد في بلاد الشام بصورة عامة في عهد الزنكيين والأيوبيين والمماليك وليست دراسة متخصصة بشعر الجهاد في ظل صلاح الدين الأيوبي.

بدوي (1981)

يتناول الكاتب دراسة الأدب العربي وخصائصه الفنية وفنونه المختلفة وحديثه عن الشعر في هذه الفترة بشكل موجز، حيث يصف الطبيعة وجمالها وآثار الإنسان عليها، هذا ولم يفرد بابا خاصا يتحدث به عن شعر الجهاد ووصف بيت المقدس إبان تحريره.

زكار (1984)

تناول الكتاب الحديث عن تاريخ أوروبا في العصور الوسطى حتى قيام الحروب الصليبية ومن ثم استعراض تاريخ العلاقات بين العالم الإسلامي وأوروبا مع دراسة أحوال بلاد الشام والوطن العربي والعالم الإسلامي قبيل وأثناء الحروب الصليبية دراسة عامة لم يتطرق خلالها إلى دراسة شعر الجهاد وتحليله .

كيلاني (1984)

تناول الكاتب أثر الحروب الصليبية في الأدب العربي في مصر والشام وذكر الوقائع والحروب بين المسلمين والصليبيين وذكر أهم المعارك، وتعرض لذكر ميادين الشعر المختلفة التي ظهرت نتيجة هذه الحروب لكنه لم يتطرق الى شعر الجهاد غرضاً مستقلاً خلال دراسته.

عبد المهدي (1988)

يتحدث الكاتب عن بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، منذ احتلالها أول مرة في سنة 492هـ وحتى تحريرها للمرة الثالثة سنة 642هـ، حيث تحدث عنها قبل الفتح المقدسي وأثناء الفتح وما بعد الفتح، كما ويتحدث عن القائد صلاح الدين وبطولاته، وسجاياه، وأعماله وفتوحاته والحديث عن صورة محتلي بيت المقدس الفرنج ذلك العدو الغازي المدمر.

البواعنة (2007)

تحدث الكاتب عن دور العلماء في المجتمع الإسلامي وأبرز أهميتهم وتفاعلهم مع الأحداث السياسية والعسكرية آنذاك.

وتركز الحديث على وصف بطولات هؤلاء العلماء ومقاومتهم المؤثرة للأعداء، ومشاركتهم في العمل العسكري بمرافقتهم للسلطان صلاح الدين الأيوبي وحضور معاركه، لكنه لم يذكر شعر الشعراء ولم يتطرق بالدراسة لشعرهم.

الدراسات السابقة

الرقب (1979)

يتناول المؤلف في رسالته الحديث عن الهجوم الصليبي على الأندلس وأهمية شعر الجهاد في تلك الفترة المميزة من حيث التاريخ والشعر، حيث كان يتميز شعر الشعراء بغزارة الإنتاج وكثرة الشعراء الذين واكبوا أحداث الصراع.

وتركز هذه الدراسة على تلمس الأصداء التي تركها الصراع آنذاك، وبيان الدور الذي قام به الشعراء في تعبئة الأمة للوقوف في وجه العدوان دون التركيز على دراسة خصائص هذا الشعر وتحليله، واكتفى بإيراد النواحي الجمالية في شعر تلك الفترة وبإيجاز.

عبد الجابر (1986)

يتحدث الكاتب عن الحركة الشعرية في الأندلس والوقوف على أسباب نمو هذا الفن الشعري لديهم، إذ كان سببه المستعمر والهجمات الصليبية على الأندلس وغرناطة حيث دفع الشعراءَ إلى بث روح القتال والحماسة في نفوس المسلمين كي يتصدوا للخطر الداهم.

ولا شك أن دراستي هذه لاتنفصل عن الدراسات السابقة في مجملها، إلا أنها تتميز عن سابقاتها بدراستها لشعر شعراء بيت المقدس في عهد صلاح الدين الأيوبي والمجالات التي طرقها هذا اللون الشعري، والمميزات الفنية التي تميز بها، وماكان له من دور فاعل في دفع المسلمين للتصدي للخطر الصليبي الداهم.

الفصل الثالث

- حياة صلاح الدين الأيوبي

- تاريخ مدينة القدس حتى سقوطها بيد الصليبيين

- صلاح الدين الأيوبي والقدس

حياة صلاح الدين الأيوبي:

مدخل:

جاءت شخصية البطل صلاح الدين الأيوبي (رحمه الله) من رحم الجهاد بعد مخاضات عسيرة عاشتها الأمة العربية الإسلامية بجهاد أبنائها المخلصين الصادقين الذين نذروا أنفسهم لله دفاعاً عن دينه وشرعه، فظهرت ما بين٤٩٠ هـ – ٥٤٠ هـ قيادات جهادية فذة أخذت على عاتقها أمانة الجهاد واستنهاض طاقات الأمة لقتال أعدائها – الفرنجة الصليبيين– في بلاد الشام ونجحت تلك القيادات في تحقيق انتصارات باهرة على الجهد العسكري الإفرنجي، واستعادت بعض المدن التي اغتصبها الفرنجة وجاء ذلك بعد نجاحها في جمع كلمة المسلمين ولم شملهم في مواجهة الصليبين ومن أبرز تلك القيادات كربوقا صاحب الموصل وكمشتكين بن الدانشمند وبلك بن بهرام، وسقمان، وجكرمش، إلا أن هذه القيادات لم تستطع الحفاظ على حالة التوحد، فجاءت جهود عماد الدين زنكي الجهادية لترسم حالة جديدة اتسمت بالقوة والتنظيم ونجحت في تحقيق أهداف استراتيجية غيرت ميزان القوة لصالح الجهد العسكري الإسلامي ودفعت الفرنجة الى اغتياله سنة٥٤١ هـ [1].

إلا أن ولده نور الدين محمود كان بمستوى المسؤولية ورجل المرحلة الذي كانت الأمة بأمس الحاجة لأمثاله، ذلك انه أتم طريق الجهاد الذي رسمه والده عماد الدين زنكي وكان أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي ذراعه الأيمن والذي كان صلاح الدين الأيوبي قد تعلم منه الكثير من الدروس في التدريب والقيادة ليكون فيما بعد ذراعه الضاربة في الأيام القادمة وقد توجت جهودهم بتوحد كلمة المسلمين وإنهاء الدولة الفاطمية والدعوة للخليفة العباسي المستضيء سنة ٥٦٤ هـ، ولابد من الإشارة إلى أن حياة الأسرة الأيوبية سياسياً وإدارياً وعسكرياً بدأت عندما خدم

---

[1] انظر : الروضتين : 55/1 –73 .

أيوب بن شادي السلطان محمد بن ملكشاه، الذي أقطعه قلعة تكريت إكرامًا له ولأمانته سنة ٥٢٥هـ، إلا أن وفاة محمد وتولي مسعود السلطنة جاء لينهي إمارته على تكريت حيث أقطعها مسعود إلى بهروز شحنة بغداد وأضاف له جميع الولايات المتاخمة وانتقل بعد ذلك إلى الموصل ليعمل تحت قيادة عماد الدين زنكي، وكانت ولادة صلاح الدين الأيوبي في قلعة تكريت في يوم عزل والده عن إمارتها، فانتقل مع أسرته إلى الموصل تحت كنف عماد الدين زنكي وترعرع في ذلك الوسط الجهادي حتى بروزه كشخصية قيادية [1].

[1] انظر : دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك :16-18.

عاش صلاح الدين[1] طفولته ونشأته في وسط أسرة معروفة بالصلاح والتقوى فأبوه نجم الدين أيوب كان عاقلاً شجاعاً حليماً جواداً عاطفاً على الفقراء والمساكين محباً للصالحين، قليل الكلام لا يتكلم إلا عن ضرورة وكان يحب ركوب الخيل، وعمه أسد الدين شيركوه كان من القادة الكبار في جيش نور الدين محمود، وخاله شهاب الدين محمود كان من الأمراء والقادة أيضا، فلا غرابة أن يكون صلاح الدين (رحمه الله) بهذا المستوى الرفيع فقد تربى في بيت عز وجاه وجهاد حيث كان أبوه وعمه وخاله الذراع اليمنى واليد الضاربة في جيش المجاهد نور الدين محمود وقد ارتسمت علامات الشخصية القيادية لدى صلاح الدين في وقت مبكر حيث التحق نجم الدين أيوب للعمل مع عماد الدين زنكي أمير الموصل وعندما حرر عماد الدين زنكي بعلبك سنة ٥٣٤هـ عين نجم الدين أيوب واليًا عليها، ومن هذا التاريخ بدأت قصة البطل صلاح الدين الأيوبي حيث عاش ومنذ نعومة أظفاره مراحل الجهاد ضد الوجود الفرنجي على أرض بلاد الشام وكان يسمع ويرى الاعتداءاتِ الفرنجية على مدن وقرى الشام ويعد العام (546هـ) بداية دخول صلاح الدين معترك الصراع حيث شهد هذا العام هجومًا افرنجيًا على مناطق نفوذ والده في بعلبك وتحديداً على سهل البقاع المجاور، فتصدت لهم القوات الإسلامية بقيادة نجم الدين أيوب وكان صلاح الدين يناهز عمره الرابعة عشر ربيعاً، وهذا السن يؤهله للمشاركة في القتال إلى جانب والده سيما وإنه عاش ظروف الجهاد منذ نعومة أظفاره، إذن فالتجربة القتالية ومعايشة الظروف الصعبة والتربية على حب الجهاد مهمة جداً لخلق روح القيادة الفذة وخلق شخصية قيادية متميزة. من هنا يمكن القول إن الأسرة تلعب دوراً كبيراً

---

[1] هو يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان، الملك الناصر صلاح الدين بن الملك العزيز بن الملك الظاهر بن الناصر صلاح الدين الكبير، وكان يكنى أبا المظفر ، ولد في قلعة تكريت عام (532هـ –1137م) ، كان واحدا من أعظم ملوك الإسلام ، ومن أهم الشخصيات التاريخية التي أنجبتها أمتنا الإسلامية على امتداد القرون الطويلة من تاريخها. للاستزادة انظر : النوادر السلطانية : 2

في تكوين الشخصيات القيادية ذلك أنها تؤثر تأثيراً كبيرًا في بروز حالات الإبداع في وقت مبكر وتعمل على صقل المواهب خصوصاً إذا كان في الأسرة أكثر من شخصية قيادية، ساهمت في تنمية القابليات العسكرية والقيادية، أدت إلى ظهور التجربة الجهادية عند صلاح الدين بصورة تلقائية ولكنها تحمل معان عالية تركت آثارها الايجابية في شخصيته في الجانبين العملي والمعنوي الأمر الذي جعل شخصيته مميزة ومؤثرة وفاعلة في الوسط الذي عاشه واستطاع بجدارة أن يجذب إليه أنظار القيادة المتمثلة بالمجاهد نور الدين محمود الذي حظي عنده صلاح الدين الأيوبي بمكانة متميزة استحقها بجدارة، فقد عرف نور الدين محمود ببصيرته الثاقبة، كوامن الإبداع والتميز في شخصية صلاح الدين وأدرك نبل الهدف الذي رسمته له البيئة في تكوين شخصيته وإمكانية الاعتماد عليه باعتباره شخصية قيادية واعده حيث ظهرت عليه أمارات القيادة في وقت مبكر جعلت عمه اسد الدين شيركوه يقربه إليه ويجعل منه الذراع الأيمن في جيشه واليد الضاربة في معضلات الأمور، لذلك فان ظهوره – كشخصية قيادية – كان في ظروف سياسية معقدة تتسم بالصراع والفوضى والتشتت لذلك شكلت شخصيته القيادية حدثًا مهمًا في التاريخ الإسلامي وليست حادثة عابرة [1].

[1] ينظر : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية : 23– 66 . ، انظر : مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين :34–56.

الحياة السياسية:

الناظر في تاريخ الدولة الإسلامية يلمح بجلاء ذلك الصراع المؤلم الذي كان ينخر جسدها ويزيد في تفككها وضعفها، فضلا عمّا كان يجري فيها من فتن داخلية في دولتي العباسيين والفاطميين مما زاد في هوة الصدع، وتردي الأوضاع الداخلية والخارجية فيهما، فالدولة العباسية كانت مشغولة بالسلاجقة الذين سيطروا على خلفائها، وأصبحوا يتدخلون في أمور الدولة وسياستها[1].

وقد شغل السلاجقة أيضا بنزاعات داخلية فيما بينهم حول السلطة، فقد كانت وفاة السلطان ملكشاه[2] عام (485هـ /1092م)، بداية لتفكك دولة السلاجقة، فقد خلق هذا الأمر الفوضى في دولتهم القوية ، وتسلل إليها التمزق والضعف[3].

ولم تكن الخلافة الفاطمية أحسن حالاً من الخلافة العباسية، فقد بلغت هي الأخرى درجة كبيرة من الضعف، بسبب ضعف الخلفاء، وتنازع الوزراء على الحكم، وكثرة الحروب بين عناصر الجيش المختلفة، فضلا عما أصاب مصر من كوارث، أدت إلى ضعفها وطمع الأعداء بها، فقد أدى العداء المذهبي بين المسلمين آنذاك إلى تفرق كلمتهم، وعدم اتفاقهم على أمر واحد [4].

لقد كانت مصر قبيل ظهور صلاح الدين نهبا للثورات الداخلية والمنازعات ما بين الطوائف المختلفة من مماليك أتراك ومغاربة، وكانت المجاعات والأوبئة تغشاها وتنهك من قواها وكانت اغتيالات الخلفاء والوزراء تدبر بأشكال مختلفة ومتنوعة.

---

[1] تاريخ دولة آل سلجوق :228 – 235

[2] هو ملكشاه بن ألب أرسلان الملقب بجلال الدولة ، كان من أحسن الملوك سيرة حتى لقب بالعادل ولد447هـ وتوفي 485هـ في بغداد ، ثالث سلاطين السلاجقة ، وفيات الأعيان : 2 /123

[3] الكامل في التاريخ : 10 /214 –216

[4] الكامل في التاريخ : 10 / 255.

فالخليفة الفاطمي أصبح لا يمثل شيئًا إنما الأمر بيد المتغلبين من الوزراء والقواد، وكم جرت مذابح ومعارك من أجل الوزارة في الخلافة الفاطمية! ولم تستقر الحالة إلا بتولية (طلائع بن رُزيك) للوزارة سنة ٥٤٩هـ ولكنه ما إن قتل سنة (٥٥٨هـ – ١١٦٣م) وتولى ابنه (رزِّيك بن طلائع) حتى عادت الفوضى من جديد.

وبالتالي كان هذا أحد الأسباب التي مهدت لنجاح الصليبيين في حملتهم الأولى ضد المسلمين.

ولم يكن هذا الضعف والانقسام في بلاد الشام والعراق فقط، بل كان أيضا في مصر، فقد كان أمراؤها في منازعات فيما بينهم من أجل السلطة، ويشير إلى ذلك ابن تغري بردى قائلا: "ولما استهلت سنة ثمان وثمانين خرج الأفضل بعساكر مصر إلى الإسكندرية وهناك نزار وأفتكين[1]، فكانت بينهم حرب شديدة بظاهرة الإسكندرية، انكسر فيها الأفضل بمن معه ورجع إلى القاهرة منهزما، فخرج نزار ونهب أكثر البلاد بالوجه البحري"[2].

ويدل هذا القول على تردي الأوضاع وسوئها في مصر من خلال المنازعات والتنافس على السيادة، ولاشك أن هذا قد زاد في طمع الصليبيين واستغلالهم لهذه الحروب الداخلية، التي أدت إلى ضعف الدولة وتردي الأوضاع فيها.

وأجج الصراعَ، وزاده حدة سعي الفاطميين إلى ضم الشام لأهميتها السياسية والدينية، فالعباسيون يريدون الحفاظ عليها، والفاطميون يريدونها منطلقا لهم ودرعا لدولتهم، وأدى هذا الانقسام إلى خلخلة أركان المسلمين.

---

[1] هم أصحاب مصر والإسكندرية ، توليا الحكم فيها أيام الأفضل ، وانفصلوا عنه ، ودامت بينهم حروب وانتهت بمقتلهما. النجوم الزاهرة : 5/ 14 .

[2] المصدر السابق : 5 /14.

فقد كانت الدولة الفاطمية في هذه الآونة تعاني فسادا وضعفا شديدين، وذلك لما كان يحاك فيها من دسائس ومؤامرات على مناصب الوزارة والحكم، كان الخلفاء يتولون الحكم وهم صغار ويستبد بتدبير أمورهم الوزراء.

وصور ابن الأثير حال مصر في العهد الفاطمي فقال: "كانت الوزارة في مصر لمن غلب والخلفاء من وراء حجاب، والوزراء هم المتكلمون، وقلّ أن وليها أحد، إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك"[1].

والجدير بالذكر أن هذا التمزق الذي عانته الدولة الإسلامية بين حكامها فتّ في عضدها، ومكن الغزاة الصليبيين من السيطرة على سواحل الشام كلها[2].

لقد لعب الزنكيون دورا بارزا في توحيد القوى الإسلامية لمواجهة الصليبيين، وكان عماد الدين زنكي[3] أول من احتضن نجم الدين أيوب، ونمّى شجاعته بأن أقطعه بعلبك، وجعل شيركوه قائدا للجيش، وتوالت اهتمامات الزنكيين بالأيوبيين بأن جُعِل صلاح الدين وزيرا لهم في مصر وتمكن عماد الدين زنكي من أن يثبت دوره كسياسي بارع وعسكري متمكن ومسلم واع، فقد أدرك الخطر الذي حلّ بالعالم الإسلامي(الغزو الإفرنجي) فقام بتوجيه الظروف لخدمة المسلمين فجمع القوى الإسلامية لضم المدن والإمارات والأقاليم، التي عانت مشكلة التجزئة والانقسام وتوحيدها. فقد كانت سياسته تهدف إلى توحيد الجبهة الإسلامية للوقوف أمام الخطر الصليبي، فلما فتح مدينة بعلبك

---

[1] ذيل تاريخ دمشق : 460 -461

[2] النجوم الزاهرة : 5 /167

[3] عماد الدين زنكي أو الأتابك زنكي بن قسيم الدولة الحاجب آق سنقر، كان والده أول ملوك الدولة الأتابكية في الموصل، وكان من كبار الشجعان الذين قاوموا الإفرنج ، قتل وهو نائم عندما حاصر قلعة جعبر سنة 541هـ. الأعلام 50/3.

(533هـ / 1139م) جعل نجم الدين أيوب واليا عليها، ولم يزل متوليها إلى أن قتل عماد الدين زنكي [1].

ثم جاء من بعده ابنه نور الدين الذي أخذ يتطلع إلى مصر التي كانت تعاني من الفوضى والتمزق، وسعى إلى توحيدها مع شقيقتها الشام، وذلك للوقوف في وجه الغزو الصليبي.

واتبع نور الدين نهج والده في توحيد القوى الإسلامية، واتخذ من حلب مركزا لتحركاته ضد الفرنجة[2].

وقد تمكّن نور الدين من ضم مدينة دمشق (549هـ)، بمعاونة قائده أسد الدين شيركوه بعد أن قام والده عماد الدين بمحاولات عديدة لإخضاعها، واشترك صلاح الدين مع عمه شيركوه في حملة وجهها نور الدين للاستيلاء على مصر سنة 559هـ، فكانت وقائع ظهرت فيها مزايا صلاح الدين العسكرية، وتم لشيركوه الظفر أخيرا باسم السلطان نور الدين، فاستولى على زمام الأمور بمصر واستوزره خليفتها العاضد الفاطمي.

---

[1] دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك :9

[2] إمارة الكرك الأيوبية :44

ولكن شيركوه ما لبث أن مات فاختار العاضد[1] للوزارة وقيادة الجيش صلاح الدين، ولقبه بالملك الناصر[2]. وذهب بعضهم إلى أنه اختار صلاح الدين ليوليه الوزارة، لكونه صغير السن قليل الأتباع في الجيش النوري الصلاحي بمصر، مما يسهل انقياده له [3].

وأكد ابنُ شداد أن صلاح الدين بعد توليه الوزارة الفاطمية، قد تغلب على الأمر كله، وأدرك ما ينتظره من مهام ضخمة في استرداد ساحل الشام من الصليبيين، وفي إزالة الدولة الفاطمية والدعوة الإسماعيلية من مصر، وهو لا يزال وزيرا للفاطميين، إذ يقول ابن شداد: " ولقد سمعته يقول: لما يسر الله لي الديار المصرية، علمت أنه أراد فتح الساحل، لأنه أوقع ذلك في نفسي ومن حين استتب له الأمر، ما زال يشن الغارات على الإفرنج، وغشي الناس من عجائب الأفاضل والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام، وهو وزير متابع للقوم وغرس في أهل البلاد العلم والفقه والدين ،والناس يهرعون إليه من كل صوب، ويفدون عليه من كل جانب، وهو لا يخيب قاصداً، ولا يعدم رافداً إلى سنة خمس وستين وخمسمائة" [4].

---

[1] هو أبو محمد عبدالله الملقب بالعاضد بن يوسف ، آخر خلفاء وملوك مصر من العُبَيْديين ، ولي الخلافة بعد وفاة عمه الفائز (555هـ / 1160م) . المصدر السابق : 109/3 .

[2] مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: 168/1-170.

[3] المصدر السابق : 1 / 170.

[4] النوادر السلطانية : 104.

وبتولي صلاح الدين لأمر الوزارة المصرية سنة (564هـ /1168م)، حيث أخذت الدولة الفاطمية بالضعف، وبدأ صلاح الدين جهوده للعمل على إسقاط الدولة الفاطمية بجميع مظاهرها السياسية والمذهبية [1].

ولقد واجه صلاح الدين خلال وزارته خطر محاولة الإفرنج السيطرة على مصر وحصارهم لدمياط، وسبب قدومهم إلى مصر خوفهم من أن يملك صلاح الدين مصر ويضعف أمرهم ،ويقضي على نفوذهم في الشام، وهذا ما أورده ابن شداد: (لما علم الإفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم، وما تم للسلطان من استقامة الأمر في الديار المصرية، علموا أنه يملك بلادهم ويخرب ديارهم، ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك، فاجتمع الإفرنج وحدثوا نفوسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها ورأوا قصد دمياط لتمكين القاصد لها من البر والبحر) [2].

ووصل الإفرنج إلى حصار دمياط، فكتب صلاح الدين إلى نور الدين بالشام يستنجده ويخبره بصعوبة موقفه، ويحثه على الإسراع في الإمدادات العسكرية، ومما جاء في كتابه إلى نور الدين:(إني إن تأخرت عن دمياط ملكها الإفرنج وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها وأموالها بالشر، وخرجوا عن طاعتي وساروا في إثري والإفرنج من أمامي فلا يكون لنا باقية)[3].

---

[1] المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية : 2 / 187.

[2] مفرج الكروب في أخبار بني أيوب : 1/ 179- 180.

[3] الكامل في التاريخ : 11 / 351- 352

فما كان من نور الدين إلا أن أرسل الإمدادات إلى دمياط، وتتابعت الإمدادات من القاهرة والشام، فلما رأى الإفرنج ذلك، انسحبوا وتراجعوا، فسيّرت الكتب إلى الشام بالبشارة برحيل الإفرنج عن دمياط [1].

وبعدها عمل صلاح الدين على إصلاح الأنظمة السياسية والاجتماعية، بتحصين الحدود المتاخمة للصليبيين [2].

وبعد أن أرسى قواعده الداخلية، ورسّخ معالم الأمن والاستقرار، أصبح هو صاحب الكلمة الأولى في مصر.

وبعد أن دانت لصلاح الدين بلاد مصر والشام و جزء من العراق والجزيرة وغيرها من البلاد المترامية الأطراف، وضع نصب عينيه هدفا واحدا لا يحيد عنه، ألا وهو مجاهدة الصليبيين بالشام، والعمل على اقتلاع شأفتهم. وكان الصليبيون قد أقاموا لأنفسهم في الساحل الشامي منذ عام 491هـ من أنطاكية شمالا إلى عسقلان جنوبا، أربع دول هي: إمارة أنطاكية، وإمارة الرها، ومملكة القدس، و إمارة طرابلس.

وبتحقيق صلاح الدين لأهدافه السامية، من توحيد الأمة الإسلامية وجمع شملها، وتوحيد صفها أمام الخطر المحدق بها، والإعداد الحربي، والأخذ بالأسباب من إعداد الجيوش عسكريا ومعنويا لقتال الصليبيين، تمكن من إعلان الجهاد في سبيل الله، وجمع عساكره من جميع الممالك الإسلامية، وهيأهم لمعركة حاسمة فكان تحرير القدس، التي رزحت تحت الاحتلال الإفرنجي وكان أعظم انتصار له في معركة حطين سنة (583هـ /1187م) التي استطاع بها أن يهزم الصليبيين

---

[1] مفرج الكروب : 1 / 183

[2] الروضتين في أخبار الدولتين : 1 / 200– 203 .

شر هزيمة، وتلا ذلك استردادُ طبرية وعكا ويافا إلى ما بعد بيروت، ووقائع على أبواب صور، فدفاع مجيد عن عكا انتهى بخروجها من يده بعد أن اجتمع لحربه ملكا فرنسا وانكلترا، بجيشيهما وأسطوليهما.

وأخيرا، عقد الصلح بينه وبين قائد الحملة الصليبية الثالثة ملك انكلترا،(ريتشارد قلب الأسد) بالرملة في شعبان سنة 588هـ، على أن يحتفظ الإفرنج بالساحل من عكا إلى يافا وأن يسمح لحجاجهم بزيارة بيت المقدس، ويكون الساحل من أوله إلى الجنوب لصلاح الدين[1].

لم يكن طموح هذا القائد المسلم الفذ ليقف عند هذا الحد، بل أراد أن يمثل سيرة الفاتحين الأوائل، فيسير بجيوشه شرقا وغربا، حتى يتحقق له ما يصبو إليه من أهداف وطموحات. وقد ذكر ابن شداد وقد أسرّ له صلاح الدين نفسه بقوله:" في نفسي متى يسر الله لي فتح الساحل، قسمت البلاد، وأوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت"[2].

حرص صلاح الدين على مواصلة السياسة التي بدأها عماد الدين زنكي، وسار عليها ابنه نور الدين، والتي تهدف بالدرجة الأولى إلى توحيد كلمة المسلمين تحت راية الإسلام، وجمع صفهم، لذلك سعى من البداية إلى توحيد بلاد مصر والشام تحت رايته، فتحقق له ذلك.

---

[1] انظر :الكامل في التاريخ : 9 / 214

[2] الروضتين في أخبار الدولتين : 2 /213

ولكن القدر لم يمهله طويلا، إذ انتقل إلى جوار ربه سنة 589هـ [1] فطويت بذلك صفحة مشرقة من تاريخ الإسلام، وقد ظهرت أصداء هذا كله في أدب العصر الأيوبي.

[1] انظر : العبر في خبر من غبر : 4 :270

الحياة الثقافية:

ازدهرت الحياة الثقافية في العهد الأيوبي ازدهارا عظيمًا في بلاد الشام، ولقد عهد عن الناصر صلاح الدين – مؤسس الدولة الأيوبية – حبه الشديد للعلوم الشرعية، وميله إلى حفظ القرآن الكريم وسماع الحديث الشريف، ودراسته له في خلواته، فضلا عن مجالسته العلماء والفقهاء. وسار خلفاؤه على نهجه، في إكرامهم العلماء والفضلاء والأدباء، "إذ كان عصرهم عصر إحياء للفكر والثقافة الإسلامية والعربية، كما كان عصر إحياء سياسي"[1]. حيث استمال السلاطين العلماءَ إلى جانبهم، ليكونوا لهم مصدر دعم في التصدي للعقبات الداخلية، ولدفع الخطر الخارجي، و ذلك. (بالعلاقة الوثيقة بين العلماء وعامة الناس، في سعيهم المتواصل لكسبهم واستنهاض هممهم[2] وكان الدافع من وراء تنشيط الحركة الفكرية تثبيت دعائم المذهب السني الذي سار جنبا إلى جنب مع سياسة الدولة الأيوبية، التي بالغ أربابها في الاهتمام بالعلوم الشرعية، وأهمها القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، يقول الأتروشي: "جاءت مساهمة الأيوبيين في الحياة العلمية، .(وتشجيعهم العلم والعلماء انطلاقا من إيمانهم بالدين الإسلامي الذي حث على طلب العلم" [3] وعلى الرغم مما عاناه المجتمع الشامي من فتن واضطرابات وحروب، وما نتج عن ذلك من تردي الوضع الاقتصادي، "فقد اتسم بطابع علمي باهر السنا، حيث استفاضت المعرفة في جوانب الشرق الإسلامي، وتشعبت فروعها، وكثر الأدباء والشعراء، والمؤرخون والفلاسفة والمتصوفة والحكماء" [4] ولا شكَّ أن ثمار المعرفة اليانعة المتمثلة في زيادة أعداد العلماء والأدباء والأطباء الكبيرة في هذا العصر، إنما هي

---

[1] الأدب في العصر الأيوبي: 75

[2] الحياة الفكرية في مصر: 69

[3] المرجع السابق: 51

[4] أبو شامة المقدسي: 7

نتاج لبذرة العلوم التي زرعها الأمويون في بلاد الشام، وفي دمشق على وجه التحديد [1]، وحافظ عليها الأيوبيون، بل وزادوا على ذلك، "وقد تمتع العلماء في في ظل دولة صلاح الدين وخلفائه ببحبوحة العيش وصاروا يُختارون للشورى والوزارة، وكان لآرائهم أثرها في سير الحوادث"[2] ولما كان الملك الناصر محبا العلمَ والأدب، ويحفظ الكثير من القرآن الكريم والشعر، ازدحم بلاطه بأعداد كبيرة من العلماء والفقهاء والقرّاء والأدباء والشعراء، وكثيرا ما كان يستمع لقراءة القرآن الكريم، خاشعا متدبرا، ومما رواه كمال الدين بن العديم عنه قال: "كان ذات ليلة في سماع، وكأنه استطاب ذلك وتفكر في نعمة الله عليه، فسَمِعْته، وهو يقول: (ربِّ أَوْزِعْني أَنْ أَشْكرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْت عَليَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحًا تَرْضاهُ[3])" ومما يروي عن استحضاره لآيات القرآن، وسرعة تمثله بها، أنّ المسلمين انتصروا على الفرنج واستردوا صيدا، وأنّ الفرنج ألقوا بأنفسهم في البحر خوفًا من القتل أو الأسر، فقال الملك الناصر: [4](مَما خطِيئاتِهِمْ أُغْرِقوا فأُدْخِلوا نارًا، فَلَمْ يَجدُوا لهُمْ مِنْ دُون اللهِ أَنْصَارًا)[5]" واتصف الملك الناصر بحسن العقيدة والظن بالعلماء والصالحين، فكان يجلُّهم ويتواضع لهم، ويكرمهم ويجزل لهم العطاء[6]، ومما يدلل على ذلك، ما رواه اليونيني من أن والده قصد زيارة الملك الناصر في جبل الصالحية، بزاوية الشيخ علي القرشي في دمشق سنة 655 هـ، فقال: "ولما دخل عليه بالغ في التأدب معه وحسن الاستماع لحديثه، ولم

---

[1] انظر المرجع السابق: 8

[2] الأدب في العصر الأيوبي: 89

[3] سورة النمل، آية 19

[4] الوافي بالوفيات: 29 / 140

[5] سورة نوح، آية 25

[6] الوافي بالوفيات: 29 / 140

يستند إلى الحائط في جلوسه"[1]. وكان لديه شغف في سماع الدرس الديني، ومجالسة الفقهاء والعلماء والاستماع لآرائهم. ومن ذلك أن الشيخ نجم الدين البادَرائي، أنشأ مدرسة بدمشق، وكان يلقي الدرس بنفسه فيها، " فكان الناصر يحضر دروسه، ويستمع إليها مع الأكابر والأمراء والفقهاء وغيرهم" [2]وقد حظي الشعراء بمنزلة مرموقة عند الملك الناصر، إذ كانوا بمثابة المنبر الإعلامي للملك، يستخدمهم في تثبيت دعائم حكمه، فينافحون عنه ويدافعون، وكان يقربهم ويجالسهم، ويتخذ منهم ندماء، ويحاضرهم ويناظرهم ويطرب لسجالاتهم الشعرية[3]، مما جعل سوق الشعر نافقة في أيامه، وكان الناصر يعظم الشعراء ويجلُّهم ويكرمهم غاية الإكرام، مهما اختلفت مذاهبهم ومعتقداتهم، وخير مثال على ذلك العز[4] الضرير الفيلسوف الرافضي؛ إذ كان يجزل له العطاء ولا يرد شفاعته يوما من الأيام [5]، حتى وصل به الأمر إلى إقطاع بعضهم ضياعا، فقد وهب تاج الدين التنوخي ضيعة على نهر ثوْرا من أنهار دمشق ولم يقف حاله مع شعراء بلاطه إلى هذا الحد، بل تعدى ذلك إلى درجة اضمحلت فيها الفوارق بينه وبينهم، فكانت علاقته معهم علاقة صداقة وأخوة، كما كان حاله مع شرف الدين الأنصاري، الذي " كانت تقع بينه وبينه مكاتبات

---

[1] ذيل مرآة الزمان: 2/ 142

[2] مفرج الكروب: 284

[3] انظر : فوات الوفيات: 2/ 667

[4] انظر : المصدر السابق: 1/ 345

[5] هو محمد بن عبد المنعم بن نصر الله بن جعفر بن أحمد بن حوارى أبو المكارم ابن شقير الدمشقي (606) دمشقي المولد والدار والوفاة, كان أديبا فاضلا وفقيها محدثا. انظر ابن الشعار الموصلي: قلائد الجمان، ج 7، ص 221 .

كثيرة"[1]. وأحيانا كان يتخللها المزاح والهزل، كما حدث مع نور الدين الإسعري[2]، الذي صفعه شرف الدين بن الشَّيْرجي، بإشارة من الملك الناصر وهذا إن دل على شيء، فإنه يدل على علو مرتبة الشعراء ومكانتهم عند الملك الناصر.

ويرى الباحث أن تواضع صلاح الدين وازالته للفوارق بينه وين شعرائه وأعوانه راجع إلى العقيدة الراسخة لدى صلاح الدين وتدينه ومحافظته على مبادئ الاسلام التي تحض على مكارم الأخلاق أي أن البعد الديني والنشأة الملتزمة هما الذان شكلا شخصية صلاح الدين المتواضعة الفذة القائمة على التقوى والورع من الله عزوجل.

---

[1] انظر : مفرج الكروب، ص 285

[2] انظر :فوات الوفيات ، ج 2، ص 271

تاريخ مدينة القدس حتى سقوطها بيد الصليبيين:

نبذة تاريخية عن بيت المقدس[1]:

ببت المقدس جوهرة ألقيت في قلب العالم المَوَّارِ بالحركة، حيث تتلاقى أطراف أمم شتى، وتطل عيون كثيرة طامعة في السيطرة على هذه البقاع.. وكأن القدس تبعث الحيوية في حياة البشر بهذا الموقع وتلك المكانة التي لها، فتتلاطم فيها أمواج البشر: المسالمة طلبا للقرب، والمحاربة طمعا في السيطرة وبسط السلطان.

والقدس مدينة ذات أرقام قياسية كثيرة، حققتْها منذ جلست في موضعها من بلاد الشام وأرض فلسطين، فقد هُدمت، أو دمرت، وأعيد بناؤها ثماني عشرة مرة، ودخلها الفاتحون . من شتى الأمم سبعا وثلاثين مرة، كما نالت منزلة رفيعة عند المسلمين، ولدى اليهود والنصارى وعلى يد اليبوسيين الكنعانيين كان البناء الأول "لأورسالم"[2] التي سميت عند المسلمين بيت المقدس، وتتابعت فيما جاء بعد ذلك من التاريخ أمم عديدة سيطرت على المدينة المباركة فجاء المصريون القدماء، والعبرانيّون من بني إسرائيل، وتبعهم البابليون الذين كانوا عُتَاةً جبارين، وجاء الفرس على أثرهم، ثم اجتاحت جيوش الإسكندر المقدونيّ المنطقة بأسرها حتى سيطروا عليها. وخلف على بيت المقدس بعد زوال دولة الإسكندر وخلفائه . الرومانُ، الذين بقيت المدينة في أيديهم، حتى فتحها المسلمون،

---

[1] انظر : تاريخ القدس ، عارف العارف ، طبعة عمان ، 1969 م ، تاريخ بيت المقدس، يعقوب الفيتري، ترجمة : سعيد البيشاوي, ص8

[2] " أور سالم " أول الأسماء لمدينة القدس ، وقد ورد في النصوص المصرية القديمة المعروفة باسم (نصوص تل العمارنة) التي ترجع إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

وبقيت في أيدي المسلمين منذ ذلك الزمن وإن تعرضت للاحتلال ثلاث مرات: من الصليبيين في نهاية القرن الخامس الهجري، ومن البريطانيين ثم اليهود في القرن العشرين الميلادي.

وتؤكد المصادر التاريخية التي تناولت هذه المدينة العريقة أن العرب من الكنعانيين واليبوسيين هم الذين خططوا وأقاموا بناءها، وتشير تلك المصادر إلى أن هناك أثارا لقبائل العموريين والكنعانيين واليبوسيين قبل ثلاثة آلاف سنة من قدوم العبرانيين إليها[1].

والكنعانيون إحدى القبائل العربية التي خرجت إلى بلاد الشام من شبه الجزيرة خلال الألف الثالث قبل الميلاد، وقد سميت فلسطين بأرض كنعان نسبة إليهم، ومن الكنعانيين تحدر اليبوسيون الذين بنوا مدينة القدس وغيرها من المدن الكثيرة المحصنة.

وقد اكسب العرب الكنعانيون القدس– إنشائهم لها وإقامتهم فيها– شخصيتها العربية التي ثبتت على مر العصور، رغم ما تعرضت له من تقلبات كثيرة، قلّ أن تعرضت لها مدينة غيرها وذلك لما تتسم به من موقع ممتاز وخصائص جغرافية جعلتها مركزا للجذب والاستقرار.

---

[1] انظر : تاريخ القدس ، عارف العارف: 11.

القدس في صدر الإسلام [1]:

ما من صفحات في تاريخ القدس الشريف أنصع ولا أبهى من تلك التي كانت في عهد الرسالة المحمدية؛ إذْ جاء الارتباط فيها بين خاتم رسل الله _صلى الله عليه وسلم_ وبين واحدة من البقاع الطاهرة التي باركها الله وبارك ما حولها.

وأُولى الصفحات المحمدية للقدس تمثلت في معجزة الإسراء والمعراج، والثانية في توجهه ومن معه من المسلمين في صلاتهم إلى بيت المقدس، ومنذ البدء لم يكن المسلمون يبحثون عن حرب تراق فيها الدماء، بل كانوا يفتشون عن قلوب تستجيب للنداء الرفيق الرحيم الذي يقودها إلى الله، لذا حزن المؤمنون في مكة لِمَا أصاب الروم من هزيمة مؤلمة أمام الفرس، ضاع فيها بيت المقدس من يد الروم وسقط في يد المجوس، وتفاعل أتباع النبي الخاتم . صلى الله عليه وسلم مع القرآن وهو يبشر بانتصار الروم من جديد، مما يعني استرجاع الرومان بيت المقدس.

وتطلع رسول الإسلام (صلى الله عليه وسلم) إلى أن تصير القدس وغيرها في حوزة أهل الإيمان، مهما تكن جنسيتهم وألوانهم، فكتب إلى هرقل "عظيم الروم" يدعوه وقومه إلى الإسلام، لا لينزع منهم ملكهم، ولكن ليدلهم على ما يجمع لهم خير الدنيا والآخرة..

وشاءت المقادير الإلهية أن تكون الحماقة سببا لإثارة الحرب بين المسلمين والروم، فقد قتل أتباع أمير غسان المُوَالي للروم حاملَ كتاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إليه، فوقعت الحرب في مؤتة وتبوك حيث بشر النبي بفتح بيت المقدس. وفي آخر عهده . صلى الله عليه وسلم بالدنيا

---

[1] تاريخ مدينة القدس : 44، انظر : موسوعة التاريخ الإسلامي 2 /56 ، وانظر : تاريخ القدس : 34 فلسطين أرض الرسالات الإلهية : 187.

أمر بتجهيز جيش كبير جعل القيادة فيه لأسامة بن زيد ليغزو أطراف الشام، وحين دنا الرحيل النبويّ عن الدنيا لم يكن الجيش قد خرج لمهمته، فأوصى النبي . صلى الله عليه وسلم . بإنفاذ بعث أسامة.

وكان أول أعمال الصديق أبي بكر في خلافته إنفاذ هذا البعث، على الرغم من فتنة المرتدّين الخطيرة التي هددت المدينةَ نفسَها، بل هددت كيان الإسلام كلَّه، وبعد إخماد نار الردة تفرغ المسلمون للفتح، وإفساح الطريق أمام الإسلام ومبادئه، لتسمع الدنيا صوته، وليعرف الخلق سموه وعلوّه، فأرسل أبو بكر جيوش الفتح و نشر رسالة الهدى.

ولم يكن المسلمون أبدا بادئين بالاعتداء، بل سبقهم الفرس إلى ذلك بتأييد حركات الردة والتمرد في جزيرة العرب، وسبقهم الروم حينما قتلوا السفير الذي بعثه الرسول_ صلى الله عليه وسلم_ إلى حاكم بُصرى التابع لهم ودخل المسلمون في جولات حربية حاسمة مع الفرس والروم، على رأسها اليرموك وأجْنَادِين والقادسية ونهاوند، واختُصَّت أجنادين كفاتح للطريق إلى بيت المقدس، حيث انهارت الدفاعات الرومانية أمام بسالة المسلمين، وصارت لآلئ فلسطين في أيديهم، وتيسَّر حصار الروم في إيلياء أو بيت المقدس، وتلا ذلك الصلح التاريخي الذي أجراه عمر بن الخطاب مع سكان المدينة سنة ست عشرة من الهجرة، وجاءت الوثيقة العُمَريّة لأهل بيت المقدس مجسِّدةً لمبدأ الرحمة والوفاء، ومُقِرَّة بمبدأ حرية الاعتقاد، وكان الفاروق عمر، وهو يسير نحو بيت المقدس ويتسلم مفاتيحها، كعادته نموذجًا للزهد والتواضع والسماحة والرحمة.

ثم جاء العصر الأموي حيث شيّد فيه الخليفة عبد الملك بن مروان الحرم القدسي الشريف سنة 72هـ، ويعد أقدم معلم من معالم العمارة الإسلامية في القدس، وما زال الخلفاء يهتمون بالقدس وأهلها عاماً بعد عام إلى أن تفرقت كلمة المسلمين فضعفوا وقويت شوكة أعدائهم فاحتل الصليبيون

القدس سنة (492هـ)، ونهب الصليبيون ما كان في الصخرة والأقصى من كنوز ووضعوا صليباً على قبة الصخرة، وحولوا الأقصى إلى مقر لفرسانهم، وجعلوا القدس عاصمةً لمملكتهم ولم يبق حكم الصليبيين في القدس أكثر من 90 سنة، حتى جاء العصر الأيوبي حيث قيّض الله للقدس صلاح الدين الأيوبي، فكان البطل الذي حررها من الأسر، وطهرها من رجس المحتلين وآثامهم.

صلاح الدين الأيوبي والقدس:

لم يكن صلاح الدين يوسف بن أيوب قد ولد حين وقعت المأساة، واحتل الصليبيون القدس، غير أنه فتح عينيه على الحياة سنة خمسمائة واثنتين وثلاثين، وهناك صراعٌ مريرٌ يدور بين المسلمين والصليبيين، وحين بلغ السابعة كان عماد الدين زنكي يدمر مملكة الرها، ويخرج الصليبيين منها، وحين بلغ السابعة عشرة، كان نور الدين محمود يسعى حثيثًا إلى تحقيق الوحدة الإسلامية، ويضم إليه دمشق، بعد أن خيب أمل الصليبيين في الاستيلاء عليها.

بدأ صلاح الدين يظهر على ساحة الحياة الإسلامية شيئا فشيئا، في جو من التواجد الكثيف لأبيه أيوب وعمه أسد الدين شيركوه بالقرب من عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود المجاهدَيْن الكبيرين.

وفي حياة نور الدين وحكمه بدأ دور صلاح الدين، حيث صحب جيش عمه أسد الدين شيركوه لضم مصر إلى دولة نور الدين، وهي المهمة التي نجحت سنة خمسمائة وأربع وستين للهجرة، فأصبح للدولة الفتية جناحان من القوة: مصر والشام، استطاعت فيما بعد أن تطوق بهما الوجود الصليبي في الشام، حتى تلاشى تمامًا أيام المماليك، وبوفاة نور الدين محمود سنة خمسمائة وتسع وستين للهجرة، أصبح صلاح الدين الأيوبي الأمير الأقوى في الدولة، فأخذ يطبق استراتيجيته لمواجهة الصليبيين، وعينُه على بيت المقدس، واصطدم بالصليبيين في معركة كبرى في حطين سنة خمسمائة وثلاث وثمانين، فسهَّلت له بانتصارها الكبير الطريق إلى بيت المقدس، وسار صلاح الدين بقواته إلى المدينة المباركة، وافتتحها في السابع والعشرين من شهر رجب من نفس العام، بعد غربة دامت حوالي تسعين عامًا.

إعداد صلاح الدين لمواجهة الصليبيين:

كانت القدس عند صلاح الدين يوسف بن أيوب هي قلب المعركة في الصراع مع الصليبيين، وكانلابد من الإعداد والاستعداد الطويل لها، فالطريق إلى تحرير القدس كما رآها مملوءة بالصعوبات ...

وإذا كان فتح القدس قد استغرق بضعة عشر يومًا، فإن الإعداد له استغرق حياة جيلين، منذ قام عماد الدين زنكي يقاتل الصليبيين وعينه على المدينة المقدسة.

وقد كان لازمًا لصلاح الدين، وهو يُعِدُّ أمته للمواجهة الشرسة مع الصليبية، أن يهتم بإصلاح جبهته الداخلية، لأن العدو إذا خرج من الداخل كان أشد خطورة، كما أن الجبهة المهلهلة المتفرقة لا تصبر في وجه عدو، فاتخذ ثلاثة إجراءات كبيرة هي:

- الإصلاح العقائدي بإلغاء الدولة الفاطمية ودعوتها.
- ثم مقاومة الفتن الداخلية.
- ثم توحيد ما استطاع توحيده من البلاد الإسلامية.

كما اتبع صلاح الدين سياسة عمرانية واقتصادية واجتماعية تهدف إلى خدمة سعيه نحو تحرير العالم الإسلامي، وإخراجه من ورطته الحضارية، التي كانت الهزيمة والتراجع أمام الصليبيين نتيجة من نتائجها، واحتاج تنفيذ هذا كله من صلاح الدين أن يخوض معارك شديدة الخطورة، فلقي مقاومات عنيفة، لكنها فشلت في أن تحول دون التغييرات التي سعى إليها.

صلاح الدين ومسيره إلى مصر:

ذهب صلاح الدين لنجدة مصر وانقاذها من الصليبيين دون رضا، وإن كان في ذلك الخير له، فلقد قال ابن الأثير[1]: "أحبَّ نورُ الدين مسيرَ صلاح الدين (إلى مصر) وفيه ذهاب بيته، وكره صلاحُ الدين المسيرَ وفيه سعادته وملكه. حُكي لي عنه أنه قال: لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين . رضي الله عنه . مستصرخين ومستحضرين . أحضرَني وأعلمَني الحال، وقال: تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه يأمره بالحضور، وتحثه أنت على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير قال: ففعلت، فلما فارقنا حلب على ميل منها لقيناه قادمًا، فقال له نور الدين: تَجَهَّزْ للمسير، فامتنع خوفًا من غدرهم أولاً وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال: إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها، فإننا إن أهملنا أمرها مَلَكَها الفرنج ولا يبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره، قال: فالتفت إليَّ عمي أسد الدين وقال: تجهز يا يوسف، قال: فكأنما ضرب قلبي بسكين، فقلت: والله لو أعطيتُ ملكَ مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق ما لا أنساه أبدًا، فقال عمي لنور الدين: لا بدّ من مسيره معي، فأمرني نور الدين وأنا أستقيله، ثم انقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم، ولم يبق غير المسير، فقال لي نور الدين: لابد من مسيرك مع عمك، فشكوت إليه المضايقة وقلة الدواب وما أحتاج إليه، فأعطاني ما تجهزت به، وكأنما أُساقُ إلى الموت، وكان نور الدين مهيبًا مخوفًا مع لينه ورحمته، فسرتُ معه، فلما استقر أمرُه وتوفي أعطاني الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه".

---

[1] مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين "النورية والصلاحية" : 133 . 134

تحقيق الوحدة الإسلامية:

وصف ابن الأثير حال المسلمين عندما بدأهم الغزو الصليبيٌ، فقال: "اتفق لهم اشتغال عساكر المسلمين وملوكهم بقتال بعضهم بعضا، وتفرقت حينئذ بالمسلمين الآراء، واختلفت الأهواء، وتمزقت الأحوال".

فهكذا بدت الصورةُ في العالم الإسلامي حين حلَّ الصليبيون على المنطقة ضيوفًا ثقلاءَ وغير مرغوب فيهم، وبسبب هذه الفُرْقة والتنازع بين المسلمين تمكنت الصليبية الغربية من ترسيخ أقدامها، وأصبحت لها ممالك ورعية تابعة في أربع إمارات كبيرة، هي: الرها وأنطاكية وطرابلس والقدس.

وحين هبَّ المسلمون في وجه الزحف الصليبي، الذي كان يسعى إلى قضم المزيد من الأرض الإسلامية، أيقن قادة المسلمين أنه لا نجاح لجهودهم في وقف المد الصليبي والقضاء عليه إلا بتقوية الجبهة الداخلية وتحقيق الوحدة الإسلامية.

وقد تعلم القائد الكبير صلاح الدين هذا الدرس ممن سبقوه على طريق الجهاد، خاصة عماد الدين زنكي ونور الدين محمود، فحرص كلَّ الحرص على تجميع شتات المسلمين، وإبعاد السلاطين الضعفاء عن مواقعهم؛ لأنهم يمثلون نقطة ضعف قاتلة في الجسد الإسلامي الذي يواجه خطر المحو.

ألغى صلاح الدين الخلافة الفاطمية سنة خمسمائة وسبع وستين، فأصبحت القوة الإسلامية تحت قيادة نور الدين كبيرة، بانضمام مصر تمامًا إلى ممتلكاته في الشام وشمال العراق، لكن نور الدين مات بعد ذلك بعامين، ولم تتح له الفرصة للزحف على بيت المقدس لتحريره، بل كادت هذه الفرصة تضيع من الأمة كلها، حين ترك نور الدين للولاية بعده طفلاً في الحادية عشرة من عمره،

فتنازع الأمراء من أتباع نور الدين وأقاربه على السلطة، وحل الجد والنشاط في الصليبيين فأخذوا يهاجمون دمشق.

زحف صلاح الدين إلى دمشق . بطلب من أهلها . وضمها إليه بلا قتال في ربيع الآخر من سنة خمسمائة وسبعين فبدأت العداوات تتكاثر من حوله، وراحت الحراب توجه إليه من كل ناحية، من الصليبيين ومن الأمراء المتنازعين على وراثة تركة نور الدين، حتى استنجد بعض الأمراء بالصليبيين الذين هاجموا جيشه من إمارة طرابلس الصليبية.

ودخل صلاح الدين في حروب حول الجزيرة وحلب، وهو يحسب حساب خطواته، وعينه على الصليبيين القريبين منه، حتى خضعت له كل ممتلكات نور الدين في الشام والجزيرة العربية واليمن والجزيرة بشمال العراق، وطوق الصليبيين من كل جهات البر وبعد أن تحققت الوحدة الداخلية لأجزاء الدولة أخذ صلاح الدين يعد العدة لمواجهة الصليبيين مواجهة فاصلة فكانت معركة حطين الخالدة[1].

حطين تفتح الطريق إلى القدس:

غربيَّ طبرية، وعلى الطريق المؤدية إلى القدس جنوبًا، وسط منطقة خضراء فيها زروع وبحيرة وماء كثير، تقع حطين، ويشرف عليها تل مرتفع..

كانت فلسطين في القرن السادس الهجري مملوءة بالصليبيين الذين أشعل صلاح الدين الأرض من تحتهم نارًا منذ وفاة نور الدين، فكان يفاجئهم بالحرب في مواقع كثيرة، ويحرر منهم الحصون والمدن، حتى جاء موعد حطين في سنة خمسمائة وثلاث وثمانين، حيث خرج صلاح الدين من

---

[1] انظر : مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين "النورية والصلاحية": 133– 134 .

دمشق في شهر المحرم، وتوجه إلى بصرى، وانتظر عودة الحجاج من الحجاز ليؤمنهم من غدر أمير الكرك الذي قتل رَكْبًا للحجيج قبل ذلك، وتعرض بالإهانة لنبي الإسلام . صلى الله عليه وسلم . فأقسم صلاح الدين على الانتقام منه بنفسه، فلما عبر الحجيج سالمين، سار السلطان الناصر صلاح الدين بجنوده نحو الكَرَكِ، فنزلها وقطع ما حولها من الأشجار، ورعى الزرع، وأكلوا الثمار[1]... وأقبلت القوات إلى صلاح الدين من مصر وشتى أنحاء مملكته.

وبلغت تحركات صلاح الدين مسامع الصليبيين، فأخذوا يجمعون جحافلهم، ويُجَيِّشون جيوشَهم، وفيهم ملوكهم الكبار، وخرجوا إلى صلاح الدين وقواته، وأقبل السلطان الناصر زاحفًا، "ففتح طبرية، وتقوّى بما فيها من الأطعمة والأمتعة وغير ذلك"، ومنع الماء عن الصليبيين حتى كاد العطشُ يهلكُهم، وتقدم المسلمون حتى نزلوا حطين.

وفي يوم حار من أيام شهر يوليو، في الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، كانت حلوق الصليبيين يوم المعركة ملتهبة من العطش، وهم يحملون شعارهم المقدس، صليبًا من الخشب، وقد زينوه بالذهب والجوهر الكثير، وأسموه صليب الصلبوت؛ لاعتقادهم أن المسيح صُلب عليه وأخذوا يزحفون جهة صلاح الدين الذي انسحب من أمامهم ليستدرجهم إلى موضع أفضل للقتال بالنسبة لجيشه، وسيطر المسلمون على المياه ومصادرها، وأعطوا ظهورهم للأردنّ، واستقبلوا العدو في جمعه الكبير، خمسين ألفًا، في هذه اللحظة انطلق الفرسان من الجانبين في قتال مرير، وارتفعت صيحات المسلمين بالتكبير، وقاتل الناصر صلاح الدين بنفسه، وطاف بين جنوده يحرضهم على القتال، وأمر بإشعال الأرض بالنفط من تحت أقدام عدوّه حين رأى العُشب الجاف يكسوها، فاجتمع على الصليبيين "حَرُّ الشمس وحر العطش وحر النار وحر

---

[1] انظر : تاريخ القدس : 170 .

السلاح وحر رشق النبال"، وحمل القائدُ المسلم وجنودُه حملة صادقة كان فيها الحسم، حيث وقعت في الصليبيين مقتلة عظيمة، وراحوا يستسلمون للمسلمين جماعاتٍ فكان الرجل الواحد من المسلمين يأسر العشرات من الصليبيين، يقيّدهم بالحبال، حتى استسلم ملوك الصليبيين، ووقع أكثرُهم في الأسر. وواصل السلطان الناصر سيره، حتى استولى على قلعة طبريّة الحصينة، وافتتح عكا صلحًا، "ثم سار منها إلى صيدا وبيروت وتلك النواحي من السواحل يأخذها بَلدًا بلدًا، لخلوّها من المقاتِلَةِ والملوك، ثم رجع سائرًا نحو غزة وعسقلان ونابلس وبيسان وأرض الغور، فملك ذلك كله وكان جملة ما افتتحه السلطان في هذه المدة القريبة خمسين بلدًا كبارًا" [1].

صلاح الدين يحرر القدس:

كانت أنشودةً رائعة للنصر، تلك التي غنّاها صلاح الدين في حطين، حيث حرر بعدها المدن والقلاع من يد الصليبيين واحدة بعد الأخرى، وكان المسلمون بعدها يترقبون بشوق عارم أن يعلن السلطان التوجه إلى بيت المقدس، فلما أعلن ذلك طارت بهم أرواحُ الشوق، فقصده المتطوعون من العلماء والصالحين من أنحاء العالم الإسلامي، وأتاه أخوه الملك العادل من مصر في قواته، فاجتمع لدى صلاح الدين جيش كبير، سار به من عسقلان إلى القدس.

وقف الجيش المسلم أمام المدينة المُطلة على الدنيا من فوق مرتفعاتها في كبرياء وشموخ، بعد أن وجه صلاح الدين أسطوله البحري في مصر إلى الشواطئ قُبالة القدس، ليمنع وصول أي مساعدة إلى الصليبيين.

---

[1] تاريخ القدس : 178 ، فلسطين أرض الرسالات الإلهية : 232 .

وأنزل صلاح الدين أخاه العادل في جيشه جنوب سور المدينة ليشغل العدو بهذه الناحية، ويشتت قواتهم حول الأسوار المنيعة، ونزل السلطانُ نفسُه في الناحية الغربية من القدس، وبقي في موضعه هذا خمسة أيام يحاول اقتحام المدينة، والعدو يزيد هذه الناحية تحصينًا، حتى أيقن صلاح الدين أن الصليبيين قد ركزوا أكثر اهتمامهم وقواتهم وعتادهم في السور الغربي للمدينة، فتحول فجأة إلى السور من جهته الشمالية، ووقع القتال ساخنًا، حتى استشهد بعض أمراء المسلمين، فازدادت النفوس حماسة وإصرارًا على القتال، وأبصر المسلمون الصلبان فوق قبة الصخرة وفوق الأسوار، فازدادوا حماسة لإبطال هذا كله، وتساقطت الأحجار من المجانيق على السور كالمطر الغزير، وتحت وابل هذه الأحجار نقب المسلمون السور من زاويته الشرقية الشمالية، حتى انهدم البرج القائم هناك، وانفتح الطريق أمام المسلمين لاقتحام المدينة [1].

كان أمام المسلمين أن يُعْمِلوا في أعدائهم قتلاً وذبحًا، ويملأوا شوارع المدينة المباركة من دماء القتلى، لكن صلاح الدين قَبِل أن يصالح الصليبيين، وتسلم منهم القدس المباركة في السابع والعشرين من شهر رجب، أي ما يوافق ليلة الإسراء والمعراج من سنة خمسمائة وثلاث وثمانين.

ومسح القائد المنتصر عن المدينة دموعها، وعالج آلامها، وردَّها إلى سالف عهدها مدينةً إسلامية يُرفع فيها الأذان، وتقام الجُمُعَات.

وفي أثناء تطويقه للقدس فشل الوفد الصليبي المفاوض لصلاح الدين في الحصول على موافقته على الصلح قالوا: "أيها السلطان، اعلم أننا، في هذه المدينة، في خلق كبير لا يعلمهم إلا الله تعالى، وإنما يفْترون عن القتال رجاء الأمان، ظنا منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم، وهم

---

[1] انظر : مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين "النورية والصلاحية" : 133 . 134

يكرهون الموت، ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا أن الموت لا بد منه، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا، ونحرق أموالنا وأمتعتنا، ولا نترككم تغنمون منها دينارًا واحدًا، ولا درهمًا، ولاتسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة.وإذا فرغنا من ذلك أخربنا قبة الصخرة والمسجد الاقصى وغيرهما من المواضع، ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين، وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيوانًا إلا قتلناه، ثم خرجنا إليكم كلنا، فقاتلناكم قتال من يريد يحمى دمه ونفسه، وحينئذ لا يُقتل الرجل حتى يقتل أمثاله، ونموت أعزاء أو نظفر كرامًا، فاستشار صلاح الدين أصحابه، فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان، وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدري عاقبة الأمر فيه عن أي شيء تنجلي، ونحسب أنهم أسارى بأيدينا، فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج، وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وكان يوماً مشهوداً، ورفت الأعلام الإسلامية على أسوارها"[1].

سكان بيت المقدس بعد التحرير:

تدبَّر صلاح الدين شئون المدينة قبل مغادرتها في الخامس والعشرين من شعبان، وأعاد إليها صفتها العربية الإسلامية، فأمر بتسليم بيوت من قُتلوا أو أخرجوا لورثتهم، وقوّاهم بإقطاع بعض أحياء المدينة لقبائل عربية، فأنزل بني حارث قرب القلعة، وبني مرة في سوق الفخر (عرفت بخان الزيت فيما بعد)، وبني سعد في الحي الذي عرف فيما بعد بالسعدية، وبني زيد بقرب باب الساهرة، وأنشأ صلاح الدين في المدينة عددًا من المعاهد لخدمة سكانها، منها رِباط للصوفية ومستشفى (بيمارستان) للمرضى، كما أنشأ أيضًا المدرسة التي عرفت باسمه فيما بعد، وفوض إدارتها إلى

---

[1] صبح الأعشى: القلقشندي 6/ 496 . 504.

القاضي بهاء الدين بن شداد، والغالب أنها خلفت (دار العلم) الفاطمية التي أنشئت مكانها كنيسة القديسة حنة (أم مريم العذراء) أيام الاحتلال الصليبي.

وأوقف صلاح الدين على هذه المعاهد وغيرها الأوقافَ لضمان نفقة إدارتها، ثم أمر بتعمير سور المدينة، وحفر الخندق حوله، وأقام مقبرة للمجاهدين بقرب باب الساهرة، بالإضافة إلى مقبرة كان الصليبيون قد دنسوها، ومقبرة باب الرحمة خارج سور الحرم الشريف من الشرق.

وفكَّ صلاحُ الدين أسْرَ آلافٍ من المسلمين، كانوا قد وقعوا في يد الصليبيين في المعارك الكثيرة التي دارت بينهم وبين المسلمين، وشمَّ هؤلاء الأسرى رائحة الحرية في جو من السعادة الغامرة بالفتح، وأحسن القائد إليهم، ومنحهم المال، وكساهم، ورجع كل منهم إلى أهله ووطنه ومسكنه.

ولم يرحل نصارى الشرق من سكان القدس مع الصليبيين، بل طلبوا من صلاح الدين أن يبقيهم ففعل، على الرغم من أن بعضًا منهم شايع الفرنجة وساعدهم، ولما رحل بطرِيقُ اللاتين مع الفرنج الذين رحلوا، خلا الميدان لإعادة تأسيس البطريركية الأرثوذكسية التي ألغاها الصليبيون، وقد تمَّ ذلك برضا صلاح الدين ومساعدته[1].

ليس هذا فحسب بل إنه لم يحرم هؤلاء النصارى من زيارة الأماكن المقدسة لهم في أمان تام وحرية كاملة، حتى إنه قد خصص حراسة للحجاج المسيحيين الذين اتجهوا إلى زيارة كنيسة القيامة.

أما عن اليهود الذين لم يُبق الصليبيون منهم حيا في المدينة، فقد سمح صلاح الدين لبعضهم أن يقيم في المدينة، وفتح جميع مملكته للمضطهدين منهم، فجاءوا إليه يطلبون الأمن ويلاقون العدل.

---

[1] الكامل في التاريخ: ج12 / 123

آخر أيام صلاح الدين في بيت المقدس:

وجْهُ صلاح الدين تعرفه القدس جيدًا مجاهدًا رحيمًا، وتملأ البسمة فمها حينما تذكره كواحد من أعظم أبطالها، ووجه القدس يعرفه صلاح الدين جيدًا، ويملأ الحزن قلبه من قسوة الناس مع هذه المدينة المباركة، الجالسة فوق رُبا عالية، تنظر إلى الناس في كبرياء وجلال جيلاً وراء جيل.

وقد عاد صلاح الدين إلى القدس بعد صلح الرملة الذي عقده مع ريتشارد قلب الأسد في شعبان من سنة خمسمائة وثمان وثمانين، وأخذ يرتب أمور المدينة المقدسة، وينظم شؤونها الإدارية، ووسع في أوقاف المدارس والصوفية.

ثم اشتاق قلبه إلى الحج، وطار به الشوق إلى سماء مكة والمدينة وأرضهما، فعزم على الحج، لكن أصحاب الرأي من المسلمين، رأوا أن يؤجل السلطان حَجَّه إلى عام آخر، خوفًا على البلاد من الصليبيين، فاستجاب صلاح الدين للنصح، ومكث في بيت المقدس بقية شعبان وجميعَ شهر رمضان قضاه في صيام وصلاة وقرآن في رحاب المسجد الأقصى وعند الصخرة، وكان يُكْرِم ملوك الفرنجة إذا وفدوا عليه، تأليفًا لقلوبهم، ومنعًا لشرورهم عن المسلمين. وفي الخامس من شوال ركب السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وعساكرُه الخيول ونيتُه دمشق، بعد أن عين عز الدين جورديك نائبًا له على القدس، وبهاءَ الدين بن يوسف بن رافعٍ الشافعيَّ قاضيًا عليها، وراحت الخيل تخرج من القدس متثاقلة، فهي الخطا الأخيرة هنا لصلاح الدين فوق هذا التراب الغالي؛ إذ توفي . رحمه الله . في دمشق أواخر شهر صفر من العام التالي، وترك القدس وغيرها أمانة في أعناق خلفائه من بني أيوب[1].

[1] انظر : تاريخ القدس : 212 ، انظر : موسوعة التاريخ الإسلامي : 5/ 612.

الفصل الرابع

أولا- صدى سقوط بيت المقدس في الشعر في عهد صلاح الدين الأيوبي

ثانيا- شعر الاستنهاض والاستنجاد والدعوة لتحرير بيت المقدس

ثالثا- صدى تحرير بيت المقدس في الشعر في عهد صلاح الدين الأيوبي

رابعا- الدراسة الأدبية لشعر بيت المقدس في عهد صلاح الدين الأيوبي

أولاً:

صدى سقوط بيت المقدس في الشعر في عهد صلاح الدين الأيوبي

تعد مدينة القدس من أكبر المعاقل والحصون في العصور الوسطى[1]، وقد استولى عليها الصليبيون، واحتلوها في زمن الحاكم الفاطمي "افتخار الدولة" الذي طلب من "ريموند" الأمان كي يخرج ورجاله من القلعة ويغادروا المدينة مقابل تسليم برج داود، فأمنه "ريموند"، وخرج افتخار الدولة" ورجاله بأمان وحماية إلى عسقلان حيث انضموا إلى ما تبقى في فلسطين من جيوش تابعة للدولة الفاطمية[2].

وهكذا سقطت القدس كلها، بيد الغزاة الصليبيين، يوم الجمعة للثالث والعشرين من شعبان عام 492 هـ، الموافق الخامس عشر من تموز عام 1099م، وذلك بعد أن حاصروها 39 يوماً وحطموا السور الخارجي، وأجبروا المسلمين على التراجع إلى السور الداخلي، وكان في بيت المقدس نحو ستين ألفا من المقاتلين، والكثير من النساء والأطفال[3] أعمل فيهم الصليبيون القتل والأسر والسبي فتألموا واستنجدوا وبكوا، فحسبك بأكوام الرؤوس والأرجل والأيدي في شوارع

---

[1] تاريخ الحروب الصليبية، : 493.

[2] المصدر السابق : 403

[3] تاريخ الفرنجة وغزاة بيت المقدس : 544 .

المدينة وطرقاتها [1] ويصف أحد الشعراء ما فعله الصليبيون من سلب الحقوق، وإراقة الدماء، والسبي، فيقول :

أَحلَّ الكفر بالإسلامِ ضيماً ... يطولُ عليه للدينِ النَّحيب

فحقّ ضائِع و حمى مباح ... وسيف قاطع ودم صبيب

وكم من مسلمٍ أمسى سليباً ... ومسلمة لها حرم سليب [2]

ويشير الشاعر إلى ما فعلوه بالمسجد الأقصى، لا سيما محرابه، "فقد جعلوه مشغولا بالخنازير والأقذار والنجاسات، وكانوا قد نصبوا على الصخرة مذبحاً، وعينوا بها مواضع للرهبان ومحط الإنجيل"[3]، يقول:

وكم من مسجد جعلوه ديراً ... على محـرابِه نُصب الصليب

دم الخنزيرِ فيه لهم خلوق ... وتحريقُ المصاحف منه طيب

أمـور لو تأمـلهن طـفلٌ ... لطفّــل في عوارضـه المشيب

---

[1] الكامل في التاريخ : 10 / 283 .

[2] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : 5/ 152.

[3] مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: 2/ 217.

ويستثير الشاعر مشاعر المسلمين الدينية، ويذكرهم بالعقيدة، من أجل تعبئة النفوس وشحذها:

أتـسبى المسلماتُ بـكل ثغرٍ وعيشُ المسلمين إذاً يطيب؟

أمـالله والإســـــــلام حـق يدافع عنه شبـان وشيـب

فقل لذوي البصائرِ حيث كانوا أجـيبوا الله ويحكُم أجيبوا [1]

وقد تناقل أهل بغداد عن بيت المقدس من الأنباء، ما أبكى العيون، وأوجع القلوب، فاستغاثوا وبكوا، وأبكوا؛ ذاكرين ما دهم المسلمين من قتل الرجال، وسبي النساء ومصادرة الأموال [2]ويستنكر أبو المظّفر الأبيوردي[3] سكب الدموع؛ لأّنه دليل ضعف وهوان:

مزجنا دماءً بالدموع السواجم فلم يبق منّا عرضّة للمراحمِ

وشر سلاحِ المرء دمع يفيضه إذا الحرب شبتْ نارها بالصوارِمِ

---

[1] النجوم الزاهرة: 10 / 152.

[2] الكامل: 10 / 284 .

[3] ديوان الأبيوردي : 150/2 و الأبيوردي : (460هـ – 507 هـ/ 1068 – 1113م) أبو المظفر، محمد ابن أبي العباس أحمد بن محمد، شاعر ومؤرخ ونسابة، ينتهي نسبه إلى صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، أما لقبه الأبيوردي فيعود إلى أبيورد مدينة بخراسان، وبها ولد، كما عرف بالكُوفني نسبة إلى كُوفن القريبة من أبيورد، وكانت موطن أهله وأقاربه. انظر : ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد (681 هـ/ 1282 م) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: 4/ 444–449 .

ثم يستنهض الهمم عن طريق وصف ما حلّ بالمسلمين، واستنكار ناعم العيش وهم على تلك الحال، ومافي ذلك من المفارقات المستهجنة:

فإيهاً بني الإسلام إن وراءكُم وقائع يلْحقْن الذُّرا بالمناسمِ

أتهويمة في ظل أمنٍ وغبطة وعيشٍ كنوارِ الخميلة ناعمِ

وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات أيَقظتْ كُلَّ نائِمِ

وكم من دماء قد أُبيحتْ ومن دمى تواري حياء حسَنها بالمعاصمِ

فهذا كله يستدعي الجهاد؛ لأن النفوس الأبية والفروسية الحّقة، تأبى الظلم والذلّ:

أَرى أُمتى لا يشْرِعون إلى العدا رِماحهم والدين واهي الدعائِمِ

ويجتنبون النّار خوفاً من الردى ولا يحسبون العار ضربة لازِمِ

أَترضى صناديد الأعاريب بالأذى ويغْضي على ذُلٍّ كماةُ الأعاجِمِ

حّتى إن الشاعر يدفعهم للغنائم إن لم تجد الاستثارة الدينية والغيرة على المحارم:

فليتهم إذ لم يذودوا حميةً عن الدين ضنُّوا غيرة بالمحارِمِ

وإن زهدوا في الأجر إذْ حمس الوغى فَهلا أَتوه رغْبةً في الغنائِمِ [1]

---

[1] ديوان الأبيوردي: 2/ 156 – 157 .

ويقول ابن الخياط مصورا أثر الاحتلال الصليبي في نفوس المسلمين:

بـنـو الشـرك لا ينكرون الفساد ولا يعرفون مع الـجـور قصدا

ولا يــردعـون عـن القتل نفسا ولا يتركـون من الفتـك جهدا

فكــم مـن فتــاة بـهم أصبحت تـدق من الخـوف نحرا وخـدا

وأم عـواتــق مــا إن عـرفـــ ـن حـرا ولا ذقن في الليل بردا

تــكــاد علـيهن مـــن خـيفة تــذوب وتتـلف حــزنا ووجدا [1]

ثم بيّن الشاعر الجليّاني* (582هـ) الأثر العميق في نفوس المسلمين إثر احتلال بيت المقدس بقوله:

اللهُ أكبرَ أرض القدس قد صفرتْ من آل الأصفر إذ حين بها حانوا [2]

إن الحـروب الصـليبية وخاصـة (احـتلال بيـت المقـدس) أذكـت قـرائح الشـعراء، وحركـت مكـامن انفعـالاتهم، ودفعـتهم إلـى نظـم قصـائد حماسـية تعكـس صـدى بطـولات الجـيش وقـواده فـي مقاومـة الأعداء، وتبديد شملهم، وتحطيم معاقلهم، وقد غلب هذا اللون من الشعر على الألوان الأخرى في هذه الحقبة، ويكاد يكون الجزء الأعظم من دواوين بعض الشعراء يتناول أدب القتال والحض عليه، ووصف الجيوش وآلات الحرب، وإبراز فضائل الشجاعة والبطولة.

---

[1] ديوان ابن الخياط : 184 –185 .

* هو أبو الفضل ،حكيم الزمان ،عبد المنعم بن عمر بن عبدالله بن أحمد بن خضر الجلياني الغساني الأندلسي ، ولد في جليانة بالأندلس ، سنة (531هـ) ، اتصل بصلاح الدين الأيوبي سنة (564هـ) ، وقال فيه شعرا يصور الأحداث في عصره ، توفي سنة (601هـ) . انظر : سير أعلام النبلاء : 477/21 .

[2] الروضتين : 2 –116 .

ثانياً:

شعر الاستنهاض والاستنجاد والدعوة لتحرير بيت المقدس في عهد صلاح الدين الأيوبي

لقد صوّر الشعراء في لوحات خالدة الحروب التي دارت رحاها على أرض الشام ،ووصفوا مشاعر الناس وأحاسيسهم تجاه تلك الحروب، وأول ما يلقانا من الشعر ما يختص بالاستنهاض والتحريض لاقتلاع جذور البغي والعدوان، وإزالة الاحتلال البغيض الذي جثم على صدور الناس الآمنين، وثلم عزتهم، وجرح كرامتهم، وأباح ما ملكت أيديهم.

ظهر الإسلام في قصائد الشعراء، مستصرخا الناس على الجلاد، مناديا بملء صوته: حي على الجهاد؛ لأنه أصبح يواجه هجمات من فئات باغية، وضربات من أناس ظالمين، لا رحمة في قلوبهم ولا شفقة، همّهم طمس معالمه، وتشويه آثاره، وإطفاء أنواره، فها هو ذا يستصرخ صلاح الدين ويستغيث به، ويقول على لسان شمس الدين بن محمد المعروف بابن الفراش [1]:

ترى الإسلام وافاك يعـدو إلى لُقيـاك مشـوق الجيـوب

وقد نادى مؤذنهم ، فنادى ليوث الغاب : حـي على الـحروب

فقد أحسّ الشعراء أن الاحتلال لا تزول آثاره من الشام، مهما سقط للصليبيين من قلاع وحصون، ما داموا قابضين على القدس بيد من حديد، ومهيمنين على المسجد الأقصى بمخالب كاسرة، لذا نراهم ينوهون بقيمتها، ويعظّمون من مكانتها، ويرغبون السلطان الناصر (صلاح الدين الأيوبي) في الإقبال عليها وامتلاكها.

---

[1] الخريدة : قسم شعراء الشام : 303/1 .

وعندما حمل صلاح الدّين رايةَ الجهاد كثر إلحاح الشعراء عليه، وتحريضهم إيّاه على القتال وتطهير المسجد الأقصى، وَضَرَبَ العماد الأصفهانيّ بسهم وافر في ذلك؛ فلم يدع مناسبة تمّر دون أن يستحّث فيها صلاح الدّين على تحرير الأرض المحتلّة. من ذلك الأبيات التّالية الّتي يحرّضه فيها على تقتيل الصليبيّين، والفتك بهم، وتطهير القُدسِ من أوضارِهِمْ، وتخليص البلاد الإسلامية من شرورهم [1]:

ويا ليتَ دَهرْي إذا لمْ يكن ... بسؤليَ يسعف لم يعسف

أيبـلغ دهري قصدي وقد ... قصدت بمصر ذرى يوسف

ويوسف مصر بغير التقى ... وبذل الصنائع لم يوصف

فسر وافتح القدس واسفك به ... دماء متى تجرها ينظـف

وأهـــد إلى الأسبتـــار البتار ... وهد السقوف على الأسقف

وخلص من الكفر تلك البلاد ... يخلصك الله في الموقـــف

---

[1] ديوان العماد الأصفهاني : 112 .

واستثارة لمشاعر صلاح الدّين، فقد صوّر له تقيّ الدّين عمر، صاحب حماة، القدسَ عروساً تُزَفُّ إلى من يخلّصها من الأعداء، ويصون شرفها، ويفتكّ أسرها، وذلك إذ يقول [1] :

جاءتك أرض القدس تخطب ناكحا يا كفأها ما العذر عن عذرائها

زفت عليك عروس خدر تجـــتلى ما بين أعبدها وبين إمائها

إيه صلاح الدين خذها غـــادة بكرا ملوك الأرض من رقبائها

كم خاطـــب لجمالـــها قد رده عن نيلها أن ليس من أكفائها

ونذر عبدالمنعم الجلياني أكثر قدسّياته للتبشير بفتح القدس، وبقرب يوم النصر، وتأخذ بعض أشعاره منحى النبوءات ،مثل قوله[2]:

أبو المظّفرِ ينويها فخذ سُفناً من باب عكّا إلى طرطوس تَنْتشرُ

يسبي فرنجةَ مِنْ أقطارها ولهُ مع المجوس حروبٌ قَدْحُها سَعِرُ

وبُعض أبنائِه بالقدسِ منتدَبٌ وبعضهمْ رومةُ الكُبرى له وَطَرُ

---

[1] الخريدة – قسم شعراء الشام – 68 . ويشارك الملك المظفر تقي الدين ، وكان شاعرا من الشعراء ، في دعوة عمه صلاح الدين لفتح القدس ، ولكنه يصور هذه المدينة فتاة عروسا حسناء بكرا ، تمنعت عن الخاطبين لأنهم ليسوا أكفياء لها ، وليس لها من كفؤ إلا صلاح الدين .

[2] الروضتين 2: 117.

فلقد جاءت دعوة الشعراء لصلاح الدين من أجل تحرير الساحل وتطهير بيت المقدس من رجس الاحتلال مبكرة، منذ أن كان وزير مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه سنة (546هـ)، فهذا العماد في قصيدة له يهنئه بالملك، ويحثه على قتال الإفرنج، وتطهير القدس، وقد صورها فتاة بكرا لم تمسها يد أحد، وبهذا العمل يترك صلاح الدين الأيوبي، ذكرا ورمزا خالدا وفيه يقول [1]:

أيا يوسف الإحسان والحسن خير منْ حوى الفضل والإفضال والنهى والأمرا

ومن للهدى وجه النجاح برأيه تجلى وثغر النصر من عزمه افترا

حمى حوزة الدين الحنيف بحوزه من الخالق الحسنى ومن خلقه الشكرا

أبوه أبى إلا العلاء وعمه بمعروفه عم الورى البدو والحضرا

وطال الملوك شيركوه بطوله وما شاركوه في العلى فحوى الفخرا

بنو الأصفر الإفرنج لاقوا ببيضه وسمر عواليه منياهم حمرا

وما ابيض يوم النصر واخضر روضه من الخصب حتى اسود بالنقع واغبرا

رأى النصر في تقوى الإله وكل من تقوى بتقوى الله لا يعدم النصرا

ولما رأى الدنيا بعين ملالة أغذ من الأولى مسيرا إلى الأخرى

وقام صلاح الدين بالملك كافلا وكيف ترى شمس الضحى تخلف البدرا

ولما صبت مصر إلى عصر يوسف أعاد إليها الله يوسف والعصرا

فأجرى بها من راحتيه بجوده بحارا فسماها الورى أنملا عشرا

---

[1] ديوان العماد : 159 ، ومفرج الكروب : 1- 177 .

وفي السنة نفسها كتب العماد إلى صلاح الدين قصيدة، أشاد فيها بكرمه، وحثه على تحرير الساحل، وتطهير بيت المقدس من دنس المحتلين، يقول[1]:

يا مخجل البحر بالأيادي قد آن أن تفتح السواحل

فقدس القـدس من خباث أرجاس كفر غتم أراذل

ولا عجب فقد كان المسلمون يحترقون شوقا إلى تخليص المسجد الأقصى – موضع الإسراء – الذي بارك الله حوله، وذلك من خلال قول الشاعر[2]:

يا أيها الملك الذي لمعالم الصلبان نكـــس

جاءت إليك ظلامة تسعى من البيت المقدس

كل المساجد طهرت وأنا – على شرفي مدّنس

وكان الشعراء يحثون السلاطين والأمراء باستمرار لتحرير بيت المقدس وإعادته إلى سلطان الإسلام، فها هو عمارة اليمني يحرض صلاح الدين على فتح القدس قائلا[3]:

قل لابن أيوب وكم ناصـــح أنفع ممن هو شاكي السلاح

حارب على مثل نجوم السما فملك مصر ما عليه اصطلاح

قولا لمن في عزمه فتـــرة ارجع إلى الجدّ وخلّ المزاح

---

[1] ديوان العماد : 326 ، كتاب الروضتين : 453/1.

[2] زبدة كشف الممالك : 20. فقد حكي أن السلطان الناصر صلاح الدين لما كثرت فتوحاته في السواحل، واوجع فيهم بسهامه وسطوته، كان لا يتجاسر على فتح بيت المقدس لكثرة ما فيه من العدّة والعتاد، لكونه كرسي دين النصرانية، وكان في بيت المقدس شاب مأسور من أهل دمشق ،كتب هذه الأبيات، وأرسل بها إلى الملك الناصر، على لسان القدس.

[3] ديوان عمارة اليمني :247

وواضح أن عمارة هنا يبشر المسلمين بقرب رجوع القدس إلى الإسلام على يد القائد المظفر صلاح الدين الأيوبي لما عايش من إخلاصه وصدقه في مجاهدة الصليبيين، وحرصه على استرجاع هذه المدينة المقدسة من أيدي الصليبيين في أقرب وقت ...

وقد استغل هذه البشارة التي زفها عمارة اليمني صاحب " الخريدة " العماد الأصفهاني وهو يستنجز صلاح الدين الوفاء بها حيث يقول :

أوَ ما وعد ت القد س أنك مُنجز ميعاده في فتحـه وطـهــورهِ

فمتى تجير القدس من دنس العدا وتقدّ س الرحمن في تطهيره

ويقول عمارة اليمني أيضا في مدح السلطان الناصر وتحريضه لفتح بيت المقدس بقوله [1]:

لعل بني أيوب إن علموا بما تظلمت منه أن يرقوا ويشفقوا

غزوا عقر دار المشركين بغزة جهارا ،وطرف الشرك خزيـان مطرق

وزاروا مصلى عسقلان بأرعـن يفيـــض إناء البر منـــه ويفـــهق

ويقول [2]:

أضفت إلى أجر الجهاد زيارة الـ ـــخليل فأبشر أنت غاز موفق

وهيجت للبيت المقدس لوعـــة يطول بها منـــه إليك التشـــوق

هو البيت إن تفتحه والله فاعـل فما بعده بـاب من الشـام مغلق

---

[1] الروضتين : 491/1 .

[2] النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية :

وفي سنة (570هـ) نظم العماد الأصفهاني قصيدة الشوق إلى دمشق، وجعل مدح صلاح الدين مخلصها، وحثّه على فتح بيت المقدس الذي سيكون فتح الفتوح، وهون عليه هذا الفتح، ودعاه إلى الاعتماد على الله حيث يقول [1]:

مـــلكت فأسجح فما للبلاد ... سـواك مجير ومولى نصـير

وفي معصم الملك للعز منك ... سوار ومنك على الدين سور

لك والله في كل ما تبتغـيه ... بـحق ظهير ونعم الظـهير

أما المفسدون بمصر عصوك ... وهذي ديارهم اليـوم قـبور

أما الأدعياء بها إذ نشـطت ... لإبـعادهم زال منك الفـتور

ويـوم الفرنـج إذا ما لـقوك ... عبـوس برغمـهم قمـطريـر

نهوضا إلى القدس يشفى الغليل ... بفتـح الفتـوح وماذا عـسير

سل الله تسهيل صعب الخطوب ... فهو على كل شيء قديـر

إليك هجـرت ملـوك الزمـان ... فمالك والله فيهم نظـير

وفجرك فيه القـرى والقـرآن ... جميعا وفجر الجميع الفجور

وأنت تريق دمـاء الفرنـج ... وعنـدهـم تـراق الخمـور

وبقي التحريض والحث على الجهاد مستمرا إلى أن يتم تحرير بيت المقدس، فقد استعان الشعراء بالفن الاستعاري في التعبير عن قضية القدس، والآلام التي تعيشها تحت نير الاحتلال الصليبي الحاقد.

---

[1] ديوان العماد : 111 . ، مفرج الكروب : 2-41 .

ويحث الحكيم عبد المنعم الجلياني على تحقيق تلك الغاية ألا وهي (تحرير بيت المقدس) من خلال قصيدة بعث بها إلى صلاح الدين، يركز فيها على الدعوة إلى الجهاد، ورفع شأن الإسلام واستئصال الشرك وأهله، مصورا للقدس، والأقصى، والصخرة منتظرة صلاح الدين، بقوله [1]:

فيا ملـــكا لم يبـــق للـدين غيره وهت عُمُدُ الإسلام فاشدد لها دعما

إذا صفرت من آل الأصفر ساحة الـ ـــمقدس ضاهت فتح أم القرى قدما

فذا المسجد الأقصى وهمتك العلـــى وعزمتك القصوى ورمـــيتك الصـــمى

ومثل ذلك في قصيدة أخرى أنشأها في السنة ذاتها، وكان قد حضر بين يدي السلطان، وأنشده قصيدته، وفيها يصور القدس وما آلت إليه في ظل الاحتلال الصليبي، ويدعو إلى تحريرها، كما يصور صلاح الدين وأبناءه وقد قدموا من مصر والشام لتحقيق أمنية المسلمين ويرى أن على العدو أن يرحل عن أرض فلسطين فيقول [2]:

اللَهُ أَكبَرَ أَرضُ القُدسِ قَد صَفَرتَ مِن آلِ الأَصفَرِ إِذ حينَ بِهِ حانوا

أَسباطُ يوسُفَ مِن مِصرَ أَتَوا وَلَهُم مِـــن غَيرِ تيهٍ بِها سَلوى وَأَمنانُ

لَهُم فَلَسطينُ أَن يَخرُجَ عـداتــهم عَنــها وَإِلّا عَدَّت بيضٌ وَخَرصانُ

---

[1] ديوان المبشرات والقدسيات : 133 ، كتاب الروضتين : 116/2 . يحث عبد المنعم الجلياني صلاح الدين على حماية الإسلام ، واستئصال الكفرة ، ويرغبه بالفتح الأكبر ، وذلك حين يربطه بفتح مكة ،كما يحثه على تطهير المسجد الأقصى بهمته وعزمه ، والقضاء على الإفرنج، مستغلا أيّ فرصة تتاح له.

[2] كتاب الروضتين : 2/ 116.

حَتّى بَنَيتَ رِتاجَ القُدسِ مُنفَرِجــاً وَيَصعَدُ الصَخرَةَ الغَرّاءَ عُثمــانُ

وَاِستَقبَلَ الناصِرُ المِحرابُ يَعبُدُ مَن قد تَمَّ مِن وَعــدِهِ فَتحٌ وَإِمكــانُ

وَجازَ بَعضُ بَنيهِ البَحرُ تَجفَلُ مِن غــاراتِهِ الرومُ وَالصِقــلابِ وَاللانُ(*)

وقال أيضا مادحا للسلطان الناصر صلاح الدين، ومحرضا له لمواصلة الفتوحات وعدم التوقف والمضي نحو النصر لا الهزيمة [1]:

أرى الراية الصفراء يرمي اصطفاقها بني أصفر بالرعـفات اللـــهاذمِ

فتسبي فلسطينــاً وتجــبي جـزائراً وتمتلكُ من يونان أرض الأساحم

وتعنو لها الأملاك شرقــا ومــغرباً بذا حكمــتْ حذاقُ أهل الملاحمِ

ويصور ابن الساعاتي** القدس مستبشرة، بعد النصر في طبرية وحطين، ويشيد بصلاح الدين ويدعوه إلى الاستمرار في الجهاد، ويصور المقدسات الإسلامية ويدعوه لتحرير القدس من بين أيدي الغاصبين، حيث يقول[2]:

(*) الصقلاب : الصقالبة وبلادهم تتاخم بلاد الخزر ، واللان : أمة وبلاد واسعة في طرف أرمينية : (معجم البلدان: 8/5 –9) .

** هو أبو الحسن علي بن محمد بن رستم بن هردوز المعروف بابن الساعاتي، للاستزادة انظر : وفيات الأعيان: 395/3.

[1] ديوان المبشرات والقدسيات : 128 ، الروضتين : 2/ 116 .

[2] ديوان ابن الساعاتي : 406/2 . هذه القصيدة جاءت عندما فتح صلاح الدين طبرية سنة (583هـ) فأنشأ ابن الساعاتي في مدحه قصيدة بيّن فيها أن صلاح الدين قد قضى فريضة من فرائض الإسلام ، كما ذكر ، وأنه بهذا الفتح قد أدخل السرور والابتهاج لقلب القدس.

قضيت فريضة الإسلام منها وصدقت الأماني والظنونا

تهز معاطف القدس ابتهاجاً وترضي عنك مكة والحجونا

فلو أن الجهاد يطيق نطقًا لنادتــك ادخلـــوها آمنـــينا

ولما فتح صلاح الدين " بعلبك " سنة (570 هـ)، لم يكتف الشعراء بهذا الفتح بل ظلوا يحفزونه على مواصلة الفتوحات، للوصول إلى الفتح الكبير (فتح بيت المقدس) الذي هو تمام الفتوح وأعظمها ، فقال العماد الأصفهاني بذلك محرضا على المواصلة وعدم التوقف، يقول[1] :

بـفتـــوح عصــرك يفخر الإسلام وبنور نصرك تــشرق الأيــام

وبفـــــتح قلعة بعلبك تهذبـــت هذي الممالك واستقام الشام

وبكى الحسود دما وثغر الثغر من فرح بنصرك للهدى بســـام

ومع استمرار صلاح الدين في إعداد العدة لتحرير بيت المقدس كانت ألسنة الشعراء، تلهج بالدعوة إلى ذلك التحرير، وقد قاد هذه الدعوة من الشعراء العماد الأصفهاني، ولعل ذلك راجع إلى قربه من صلاح الدين، فهو كاتبه، ورئيس ديوانه، وشاعره المقرب إليه، والممجد لبطولاته فلا غرو أن يكون في طليعة الشعراء المحرضين على فتح القدس .

ففي سنة (572هـ) أنشأ قصيدة مدح فيه صلاح الدين الأيوبي، وحثه على تحرير القدس وسفك دماء الأعداء، فهم كفار أنجاس، فيقول [2]:

---

[1] ديوان العماد الأصفهاني : 378 . ، مفرج الكروب : 2/ 30 .

[2] المرجع السابق: 303- 304 .

جنى ظلمة الفضل حظي المنير ولولا سنا الشمس لم تكسف

ويـــا ليـــت دهري إذا لم يكن بسؤلي يُسْعفُ لم يَعْسُفِ

أيـــبلـــغ دهري قصدي وقـــد قصدتُ بمصر ذُرَى يوسفِ

ويـــوسفُ مصر بغيرِ الـــتقى وبـــذلُ الصنائع لم يوصفِ

فسر وافتح القدس واسفك به دماء متى تجرها ينـــظفِ

وبعد أن ضمّ السلطان الناصر صلاح الدين (تل السلطان) إلى وحدة البلاد، هنأه العماد بفعله هذا، ورأى أن الساحل الاقصى سيفتح، وأن دماء الإفرنج ستملأ ساحاته، كما ظهر في قوله[2] :

لله جيشٌ بالمروج عرضـــتـــه أسد العرين رجاله ورماحـــــه

ومن الحديد سوابغا أبدانـــــــه ومن المضاء عزائما أرواحـــه

وله فوارس بالنفوس سماحـها أتعاد بالعرض المصون شحاحه

روض من الصفر البنود وحمرها والبيـــض يزهـــى ورده وأقـاحه

فاعبر إلى القوم الفرات ليشربوا الموت الأجـــــاج فـقد طما طَفَـــّاحه

لتفـــك من أيديـــــهم رهـــــن الـــــرها عجـــلا ويدرك ليلها إصـــــباحه

وابغوا لحـــــران الخـــــلاص فـــكم بها حـــــرَّان قلب نـــحوكمُ ملتـــاحه

نجـــــوا البـــــلاد من البلاء بعـدلكم فالظلم باد في الجميع صراحـــه

واستفـــــتحوا ما كـــان من مستـــغلق فيـــــها فربـــــكم لكم فتاحـــه

---

[2] ديوان العماد : 111 .

وقال العماد الأصفهاني: "كنت جالسا بين يدي الملك الناصر صلاح الدين بدمشق، في دار العدل، أنفذ ما يأمر به من الشغل فحضر سعادة الأعمى[1] من أهل حمص فأنشد الناصر صلاح الدين قصيدة، حرض فيها على فتح بيت المقدس والسواحل المحيطة به، يقول [2]:

فانهض إلى فتح السواحل نهضة قادت لك الأعداء بعد حرانها

واسلم صلاح الدين وابق لدولـــة ذلـت لدولتها ملـــوك زمانها

ويقول، متنبئا بالفتح القدسي عند فتح حلب [3]:

يؤمل المملوك مملوكة تبدل الوحشة بالأنـــس

لا زلت وهابا لما حـازه سيفك من حُوٍ ومن لُعسِ

وإنني آمل من بعـدها كرائم السبي من الـقدس

وقال أيضا محرضا السلطان الناصر صلاح الدين على (فتح القدس) وسفك دماء الصليبيين وتخليصه من الكفر، ونشر راية الإسلام فيه [4]:

---

[1] سعادة بن عبدالله الحمصي الضرير ، وكان يعرف بسعادة ، ولكنه كان يكتب على قصائده سعيد بن عبدالله، كان مملوكا لبعض الدمشقيين، لقيه العماد الأصفهاني مرات بحمص ، سافر إلى مصر في أول مملكة الناصر صلاح الدين ، فقدم دمشق سنة 571هـ ، وله عدد من القصائد يمدح بها صلاح الدين. انظر : خريدة القصر – قسم شعراء الشام : 406/1 .

[2] الخريدة –قسم شعراء الشام – 411/1 .

[3] ديوان العماد : 239 ، الروضتين : 46/2 .

[4] المصدر نفسه : 301 ، مفرج الكروب : 56/2 .

فديتـــــــك من ظالم منصف وناهيك من باخلٍ مُسعفِ

فسر وافتح القدس واسفك به دماءً متى تُجــرها ينظف

وأهد إلى الأسبـــــتار البــتار وهُدَّ السقوف على الأسقف

وخلص من الكفر تلك البـلاد يخلصك ربُّك في المــوقف

ولم يتوقف الأمر بالتحريض على الجهاد عند العماد فقط ، فها هو ابن الساعاتي ، قد شارك في الدعوة إلى تحرير بيت المقدس، ففي قصيدة أنشأها سنة (575هـ) يهنئ بها السلطان بفتح بيت الأحزان وتخريبه، ينصح الأعداء بأن يرحلوا من ذلك المكان، لأنه وطن الأنبياء، ويذكر أن صلاح الدين آت لتحرير البلاد، يقول [1]:

أيسكن أوطان النبيين عصـــــبة تمين لدى أيــمانها وهي تحلف

نصحتكم والنصح في الدين واجب ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

فالشاعر في الأبيات السابقة يستنكر احتلال الإفرنج أوطان النبيين، وخاصة احتلالهم بيت المقدس، وهي أوطان النبيين التي يدعو ابن الساعاتي إلى رحيل العدو الصليبي عنها، ويقصد بيوسف هنا السلطان صلاح الدين الأيوبي.

وقال ابن الساعاتي أيضا، يمدح الملك الناصر ويحثه على المسير إلى القدس وما حولها من مدن[2]:

---

[1] ديوان ابن الساعاتي : 409/2.

[2] مفرج الكروب : 39/2 ، الروضتين :2 : 38 ، 39 ، 40 .

ما بعد لقياك للعافين من أمل ملك الملوك وهذي دولة الدول

فليعلم القدس أن الفتح منتظر حلوله وعلى الآفـــــاق فليطل

وما السواحل إلا كالــفرات إذا وافى فإن لم تحط علما به فسل

وقال ابو شامة المقدسي: " حدثني شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي [1]، قال: قرأت بخط شيخنا أبي الفضائل بن رشيق بمصر عقيب موته في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة قال : رأى إنسان كأن شخصا ذا جهامة واقف على حائط بجامع دمشق، يقول [2]:

ملك الصياصي[3] والنواصي ناصر للدين بعد إياسه أن ينـصرا

وسيفتح البيت الـــــمقدس بعدما يطوى الطراز له ويقتل قيصر

ومن المواقف الظريفة التي تدل على قوة الحثّ والتحريض لتحرير بيت المقدس، فقد روى أبو شامة المقدسي عن ابن طي النجار [4] أنه قال: "حدثني جماعة من الحلبيين منهم الركن ابن جهبل

---

[1] هو علم الدين ابو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد الهمذاني السخاوي ، ينسب إلى "سخا" وهي بليدة في الغربية بمصر، ولد سنة (558هـ) وتوفي سنة (643هـ) ودفن في قاسيون بدمشق، انظر الذيل على الروضتين :177 .

[2] الروضتين : 104/2 .

[3] الصياصي : الحصون ، مفردها صيصته .

[4] هو يحيى بن حميدة بن ظافر بن عبدالله الغساني الحلبي ، الشهير بابن طي النجار ، نشأ في حلب وقرأ القرآن، ودرس الحديث وعلوم البلاغة ، والأدب ، أديب مؤرخ، من كتبه (كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين) و (معادن الذهب في تاريخ حلب)، توفي سنة 630 هـ، انظر الأعلام : 8 /144 .

العدل، قال: كان الفقيه مجد الدين بن جهبل الشافعي الحلبي [1] قد وقع إليه تفسير القرآن لأبي الحكم المغربي[2] فوجد عند قوله تعالى: " ألم غلبت الروم ... الآية " [3]، أن أبا الحكم، قال: إن الروم يُغلبون في رجب سنة 583هـ، ويفتح البيت المقدس، ويصير دارا للإسلام إلى آخر الأبد واستدل على ذلك بأشياء ذكرها في كتابه، فلما فتح السلطان الناصر صلاح الدين حلب، كتب إليه المجد بن جهبل ورقة يبشره بفتح البيت المقدس على يديه ويعين فيه الزمان الذي يفتحه فيه، وأعطى الورقة للفقيه عيسى[4] فلما وقف الفقيه عيسى عليها لم يتجاسر على عرضها على السلطان، وحدّث ما في الورقة لمحي الدين بن زكي القاضي الدمشقي، وكان ابن زكي الدين واثقا بعقل ابن جهبل، وأنه لا يقدم على هذا القول حتى يحققه فعمل قصيدة مدح السطان بها حين فتح حلب في صفر، سنة (579هـ)، وقال فيها :

وفَتحكُم حلباً بالسيف في صفرٍ قَضى لكم بافتتاح القُدس في رَجَب

---

[1] هو مجد الدين أبو محمد طاهر بن نصر الله بن جهبل الشافعي ، ولد بحلب سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة . انظر : وفيات الأعيان : 272/6.

[2] هو أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن اللخمي الإشبيلي ، المعروف بابن برجان. انظر : وفيات الأعيان : 236/4 .

[3] سورة الروم : 1- 4 .

[4] هو الفقيه ضياء الدين أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد بن أحمد بن يوسف الهكاري ، ينسب لقبيلة من الأكراد لهم معاقل وحصون وقرى من بلاد الموصل من جهتها الشرقية، وذكر ابن خلكان أنه ولد أخي الفقيه عيسى ، أملى نسبه عليه ، ووصل إلى علي بن أبي طالب ، ويعد أحد أمراء الدولة الصلاحية ،حضر فتح بيت المقدس وتوفي سنة (585هـ). انظر : وفيات الأعيان : 345/3 .

ولما سمع السلطان الناصر صلاح الدين ذلك، تعجب من مقالته، ثم حين فتح بيت المقدس خرج إليه المجد بن جهبل مهنئا بفتحه، وحدثه حديث الورقة، فتعجب السلطان من قوله وقال : قد سبق إلى ذلك محيي الدين بن زكي الدين، غير أني أجعل لك حظا لا يزاحمك فيه أحد"[1].

وظلت الحماسة الشعرية ملتهبة بالمشاعر الجهادية الداعية إلى تحرير القدس، فقد أنشأ العماد الأصفهاني قصيدةً، مدح فيها المظفرَ تقيَّ الدين عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين، وكان قائداً من قوّاده، مشيدا بجهاده ضد الإفرنج، ومبينا فيها أن الأيوبيين هم وحدهم الذين سيحررون بيت المقدس، يقول [2]:

وبَيّضْتَ وجهَ الدين يوم لقيتهم وأبيضكمْ من أسود القصر أشوسُ

ولا يفتحُ البيتَ المقدسَ غيركمْ وبيتكمُ من كلّ عابٍ مُقَدَّسُ

وهكذا بقي الشعراء يحرضون على الجهاد في كل مناسبة، وبشتى الأساليب، لأن قضية استرداد بلاد المسلمين عامة والقدس خاصة كانت شغلهم الشاغل، ولم يكن التحريض مقصورا على أمراء المسلمين أو ملوكهم، بل تعداه إلى خليفة المسلمين، فذكره الشعراء بالجهاد ومواصلة الفتوحات. ومن الملاحظ أن أغلب هذه القصائد يشير بصفة خاصة إلى تخليص القدس الشريف، فقلما نجد قصيدة لا نجد فيها ذكرا للقدس، ودعوة صريحة قوية إلى إنقاذها من أيدي الصليبيين.

---

[1] الروضتين : 45/2 -46 .

[2] ديوان العماد : 238 .

وما كان ذلك إلا لأن القدس هي أولى القبلتين، وفيها ثالث الحرمين الشريفين، وهي مسرى الرسول الأعظم –صلوات الله وسلامه عليه – فليس غريبا على شعراء تلك الحقبة، أن يثيروا هذه القضية في كلّ مناسبة، بل إنهم يوجدون المناسبات لإثارتها والحديث عنها.

وبقيت جهود الشعراء مستمرة في حثّ السلطان الناصر صلاح الدين إلى مواصلة الفتوحات فأصبحوا يحرضون على الجهاد في كل مناسبة، وبشتى الأساليب، لأن قضية استرداد بلاد المسلمين عامة والقدس خاصة كانت شغلهم الشاغل ، بعد كل انتصار له يذكرونه ببيت المقدس وأنها لازالت تنتظر فارسها المخلص، ولا خلاف في أن معركة حطين الخالدة ، كانت الموقعة الفاصلة بين المسلمين والفرنجة، فكانت معركة خالدة في تاريخ الإسلام عامة وتاريخ الحروب الصليبية خاصة، ومع أن الشعراء لا بدّ وأن يكونوا قد أكثروا من ذكرها، والإشادة ببطلها، إلا أن الشعر الذي وصلنا كان قليلا، فأبو شامة المقدسي يذكر أبياتا قليلة للعماد الأصفهاني، فها هو يقول في قصيدته السينية، وهي أشهر قصائده في الإشادة بها [1]:

قل للمليك صلاح الدين أكـــــرم من يمشي على الأرض أو منْ يركب الفرسا

من بعد فتحكَ بيت القدس ليس سوى صور فإنْ فُتحَتْ فاقـــــصدْ طرابلـــسا

وأخل ساحل هذا الشـــــــــام أجمعه من العـــــداة ومن في دينه وكسا

ولا تدعْ منهم نفسًا ولا نفَسَاً فإنهم يأخـــذون النفسَ والنفــسا

نزلت بالقدس فاستفتحه ومتى تقصـــد طرابلسا فانزل على قَدسا

يا يوم حطين والأبطالُ عابسةٌ وبالعجاجة وجه الشمس قد عَبَسا

---

[1] ديوان العماد : 228 –22، الفتح القسي في الفتح القدسي : 81/8 .

رأيتُ فيه عظيم الكفر محتقرا مُعـــــفّراً خدُّه والأنـــفُ قد تعَسا

ولما كان استرداد القدس من أعز الأماني، وأغلى الرغبات، لذلك لم تفتر ألسنة الشعراء عن ذكرها، فها هو العماد الأصفهاني يوجه الخطاب للسلطان صلاح الدين أن يتجه إلى تحرير بيت المقدس من أيدي الغاصبين بعدما انتهى من تحرير حطين.

وفي هذا النصر الساحق والتصميم الرائع وفي هزيمة الإفرنج هزيمة اهتزت لها الأرض من شدتها، وفي كثرة قتلاهم، وأسراهم يقول العماد في قصيدة سينية أخرى [1]:

ومن قبل فتح القدس كنت مقدَّسا فلا عَدِمتْ أخلاقُكَ الطُّهْرَ والقدسا
وطهرتَهُ من رجسهم بدمائـــــــهم فأذهبتَ بالرِّجس الذي ذَهَب الرجْسا
سحبت على الأردنِّ رُدْناً من القنـا رُدَينيّـــةً مُلْـــدًا وخطـــية مُلسا
حطــطتَ على حطين قدرَ ملوكهم ولم تُبقِ من أجناس كفرهمُ جِنْـسا

فالشاعر هنا لم يكتف بطرد الصليبيين من حطين، وإنما أراد دكّ معقلهم، وتوجيه نظر صلاح الدين إلى منزلهم (القدس) الذين اغتصبوه بهتانا وزورا.

وكأنه يريد أن يقول إنه لن يدع صلاح الدين يخلد إلى الراحة، ويعيد سيفه على غمده، وينأى عن صليل السيوف، وقراع القنا، وصهيل الخيل. ولابن الساعاتي قصيدة جميلة في فتح طبرية، وقد نظمها الشاعر على ضفاف طبرية، ناظرا لأطلال القدس، متحسرا ومتأملا من الله أن تحرر، ويطرد الصليبيون منها، واخذ يسترجع ذكرى حطين الخالدة، متأملا أن يحرر السلطان صلاح الدين القدس مثلها، ويخلصها من الظلام الصليبي [2]:

---

[1] ديوان العماد : 232-234 ، الروضتين : 89/2 .

[2] ديوان ابن الساعاتي : 406/2 .

وما طـــــــبرية إلا هدي ترفع عن أكـــــف اللامسينا

تهز معاطف القدس ابتهاجاً وترضي عنك مكة والحجونا

فلو أن الجهاد يطيق نطـقاً لنادتـــــــــك ادخلوها آمنينا

جعلت صباح أهلها ظلاماً وأبدلـــــــــت الزئير بها أنينا

فألمم بالسواحل فهي صــور إليـــــك وألحق الهام المتونا

فقلب القدس مسرور ولولا سطـــــاك لكان مكتئباً حزينا

أدرت على الفرنج وقد تلاقت جموعهم عليك رحى طـــحونا

وتبدو مما سبق أنّ حنكة السلطان الناصر صلاح الدين العسكرية واضحة حين ترك بيت المقدس، ونزل على مدن الساحل؛ لأنه يكون بهذا العمل قد حرم الصليبيين من قواعدهم البحرية وحاصرهم داخل بلاد الشام [1].

وبعد هذه الفتوحات توجه السلطان الناصر صلاح الدين إلى بيت المقدس، هدفه الأكبر وحلمه الأسمى.

---

[1] سياسة صلاح الدين : 298 .

ثالثاً:

صدى تحرير بيت المقدس في الشعر في عهد صلاح الدين الأيوبي

لجأت أعداد كبيرة من فلول الصليبيين بعد هزيمتهم في معركة حطين، إلى بيت المقدس لأنهم ظنوا أن لجوءهم إلى بيت المقدس خير وسيلة لنجاتهم، وذلك لما تتمتع به هذه المدينة من قدسية في قلوب المسلمين والمسيحيين على السواء، فضلا عما عهدوه من تسامح صلاح الدين واحترامه للمقدسات، وهنا تذكر المصادر العربية أن عدد من تجمع من مقاتلي الصليبيين داخل بيت المقدس في ذلك الحين بلغ أكثر من ستين ألفا عدا النساء والأطفال [1].

ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء الصليبيين الذين تجمعوا داخل بيت المقدس في ذلك الوقت، كانوا يرون أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون بيت المقدس، فقاموا ببذل كل جهودهم لتحصينه، وجمع الحشود، توقعا لمسير صلاح الدين إليه، فحصنوه في تلك الأيام بكل ما لديهم من إمكانيات، ونصبوا المنجنيقات على السور ليمنعوه ممن يريد النزول عليه والدنو منه، ثم صمدوا على سوره بحدهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والدفاع عنه، فهم يعتقدون أن النفس والأموال والأولاد بعض ما يجب عليهم في حفظه والذب عنه [2]. وكان صلاح الدين قد استقبل أمام عسقلان، عقب استيلائه عليها في نهاية جمادى الآخرة سنة 583هـ، وفدا من أهل بيت المقدس، فعرض عليهم تسليم بيت المقدس بالشروط التي استسلمت بقية المدن الصليبية، أي مقابل تأمينهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم، ويسمح لمن شاء منهم بالخروج من المدينة سالما، ولا شك أن صلاح الدين بما عرف عنه من تدينه وخلقه كان قلقا بشأن القيام بحصار تلك المدينة المقدسة، واستخدام العنف ضدها لما لها من حرمة عند المسلمين والمسيحيين على السواء [3].

---

[1] انظر : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية : 81 . ، وانظر : الروضتين : 92/2 .

[2] انظر : الكامل : 11 ، 547 . ، مفرج الكروب : 212/2 .

[3] الحركة الصليبية ، 2 / 919 .

وعلى الرغم من ذلك العرض الذي تميز بالشهامة العالية من صلاح الدين، فإن وفد بيت المقدس رفض بلا تردد ذلك العرض، وقالوا: إنه من أجل الله لن يسلموا المدينة حيث مات المخلص من أجلهم ولذا وعدهم صلاح الدين بالاستيلاء على المدينة عنوة، وأضاع الصليبيون فرصة نادرة لهم[1].

حاصر صلاح الدين القدس في الخامس عشر من رجب سنة (583هـ)، وبعد محاولات عديدة تمكن من فتح المدينة، وكان ذلك يوم الجمعة من الشهر نفسه، فخرّ ساجدا لله، شاكرا إياه على هذه النعمة الكبرى بالفتح[2].

طفق الشعراء ينشدون الأشعار ويتغنون بهذا الفتح العظيم، وقد حار بعض الشعراء بهذا الفتح، واستغربوه، وتساءل بعضهم هل هذا حقيقة أم حلم؟

نعم، لقد كان الدافع لهذا التساؤل اليأس الذي سيطر على النفوس مدة تسعين عاما، ولكن هذا الفتح لم يعد حلما، بل أصبح واقعا ملموسا، فقد تحقق كسر الإفرنج كما يبدو في قول الجوّاني* :

أترى منامًا ما بعيني أُبصِرُ القدسُ يُفتَحُ والفرنجةُ تُكْسَرُ

ومَليكُهم في القيدِ مصفودٌ ولم يُرَ قبلَ ذاك لهم مليكٌ يؤسَرُ

---

(1). Lane – Poole .op.Cit.P.225

(2) الروضتين : 93/2 .

* هو شرف الدين أبو علي محمد بن أسعد بن علي ابن معمر بن علي بن الحسين العبيدي العلوي الحلبي ، أصله من الموصل ، ولد في مصر ونشأ بها ، كان يلازم الاشتغال في علم النسب ، وله تصانيف عدة فيه ، كان في فترة من الفترات نقيب الأشراف بالديار المصرية ، توفي سنة 588 هـ . انظر الخريدة – قسم شعراء مصر : 117/1 ، الروضتين : 105/2 .

قد جاء نصرُ الله والفتحُ الذي وعدَ الرسولُ، فسبِّحوا واستغفروا[1]

ويذكر الجواني ما فعله القائد المسلم صلاح الدين من محو لآثار الشرك، فقد طهرت الديار من كل الآثام، يقول [2]:

وقُمَامَةُ* قُمَّتْ مِنَ الرِّجْسِ الذي بزوالــِهِ وزوالِـــها يَتـــــطهَّر

ويرى الجويني أن فتح صلاح الدين هذا من فتوح الأنبياء، وليس للإنسان إلا أن يشكر الله عليه كما يشير إلى أنه قد مضى تسعون عاما على بيت المقدس، ولم يقم احد من ملوك المسلمين بتحريره، ويذهب إلى أنه لو كان هذا الفتح في زمن الرسول– صلى الله عليه وسلم– لنزلت فيه آيات من الذكر، يقول [3] :

جُنْدُ الســـــمّاءِ لهذا المَلكِ أعوانُ من شكَّ فيهم فهذا الفَتْحُ برهـانُ

مَتَى رأى النَّاسُ ما نحكيهِ في زمن وقد مضيت قبل أزمـان وأزمان

هذي الفتـــــوح فتوح الأنبياء وما له سوى الشكر بالأفعال أثمان

تسعون عاما بلاد الله تصرخ والـــ إسلام أنصاره صمٌّ وعُميـــــــان

لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد تنزلـــت فيه آيات وقـــــرآن

---

[1] الروضتين : 105/2 .

[2] الروضتين : 2 /106 ، مفرج الكروب : 233/2.

* أطلق المؤرخون هذا الاسم على كنيسة القيامة ؛ لأنها كانت موضعا للقمامة من قبل اليهود ، وكان النصارى قد طهروه واتخذوه كنيسة لهم ، ثم صار المسلمون يطلقون عليها هذه التسمية للاستهزاء والتحقير . البداية والنهاية : 95/7 .

[3] الروضتين : 2 / 104 – 105 .

ولعبد المنعم الجلياني قصيدة يمدح فيها السلطان ويثني عليه، ويهنئه بنصره المبين بفتح بيت المقدس وتطهيره من النجس الذي كان فيه، وشبههم بالشوكة التي يتألم من توخزه وينتظر من ينزعها منه ليتخلص من الألم، يقول[1]:

لقد أوسع الله الفـــــــتوح بعامنا وخيــس منها المصعب المتأبدا

أمور نبت عنها العقول واذعنت بأن اختــصاص الحظ لله موجدا

تحرّك شخصا حرّك الأرض جائــلا وهزّ من الشهب الذوائب مصعدا

ولقبه بالناصـــــــر الملك يوسف ونقَّبـــــــه نور المــــهابة سيّدا

وكنت أرى ذا الفتح من قسم يوسف فلله ذاك القســـم ما كان أسعدا

كفى مطهرا من طهّر القدس واحتوى بني أصـــــفرٍ سبيا وقتلا وتعمّدا

هو المسجد الأقصى وهم شوكة الوغى فمـــــا كان لولا الله يخلص معبدا

هنيئا لبيت القدس الآن طُـــــــهره وللناصـــــر المنصور غبطته غدا

ويقول أيضا مادحاً ومهنئاَ السلطان الناصر صلاح الدين عندما فتح بيت المقدس[2]:

أفاتح بيت القدس سيفك مفتـــحٌ لقفل الهُـــدى مغلاقُ باب المآثـم

فحكمت في الضدين غير معارض فأحكمت في نفر الوغى المتخاصم

ومن الواضح مدى الإحساس والدهشة التي أصابت الشعراء لفتح القدس، فقد كان تحولا واسعا في قصائد المديح.

---

[1] ديوان المبشرات والقدسيات : 143-144 .

[2] المصدر السابق: 146

وكأنّ الفرحة بفتح القدس قد عقدت لسان ابن الساعاتيّ، فهو يعنّف نفسه لأنّ لسانه لم ينطلق لدى تلقّي النّبأ السارّ بشعر أو نثر، بينما حلا ترديد "فتح القدس" على كلّ لسان، ونفذ صوته إلى كل مسمع، حتّى أسمع الرّماح الصّمّ؛ ومن عجائب ذلك الفتح أنّه يحمل في الوقت نفسه معنيين لا يلتقيان، أحدهما السّرور الغامر، وثانيهما الغمّ الغامر[1]:

أعيَّاَ وقد عاينـــــتم الآية العظمى ... لأيَّةِ حال تدخر النثر والنَّظـــــــما

وقد ساغ فتح القدس في كل منطقٍ ... وشاع إلى أن أسمع الأسل الصُّـمَّا

تحلُّ بهِ الأضـــــداد واللفظ واحــدٌ ... فكمْ سرَّ قلباً في الأنام وكم غمَّا

وتندى مغانيه ومـــا جادها الحــيا ... ولا سحبت ريح الصَّبا فوقها كمَّا

حيا مكّةَ الحسنى وثنَّى بيـــــثربٍ ... واطرب ذيَّاك الضَّريح وما ضمَّا

لقد سكّن الدهياء أمناً وغبطـــةً ... فهل كان لفظاً سار أو عسكراً دهما

فليت فتى الخطَّاب شاهدَ فتحـــها ... فيشهدَ أنَّ السهمَ من يوسفٍ أصمى

وقد أوتي الفتـحين مالاً وبـــــلدةً ... فلم يبق نصراً ما حواه ولا غنـــما

ولابن الساعاتي قصيدة ثانية يمدح فيها السلطان صلاح الدين، ويثني عليه إذ كان فتحها الأول في عهد عمر بن الخطاب، وكان فتحها الثاني في عهده بعد إن أعرض عن فتحها السادة والمسودين[(2)]:

هو الفاتح البيت المقدس بعدما ... تحامته الـــــدنا ومـــسودها

فضيلة فتح كان ثاني خليفـــــة ... من القوم مبديها وأنت معيدها

[(1)] ديوان ابن الساعاتي : 2 /385 , الروضتين 2 :106

[(2)] المرجع السابق : 410/2 .

وله قصيدة أخرى يمدحه فيها على استرجاعه بيت المقدس، يقول [1]:

عصفت به ريح الخطوب زعازعـاً فلقين طوداً لا تخف أناتـــه

هو منقذ البيت المقدس بعدمـا طالت فما وجد الشفاء شكاته

بيت تأسس بالسكون وإنمـا عند الزحاف تحركت سكناته

أمشيت الأعداء وهي جحافل عن شمل دين جمعت أشتاته

أوتيت عزماً في الحروب مسدداً لا زيغه يخشى ولا هفواته

أحسنت بالبيت العتيق ويثـرب ولك الفعال كثيرة حســـناته

هذي سيوفك محرمات دونـــه لبكائهن تبسمت حجـــــراته

وقال ابن سناء الملك * يمدح الملك الناصر (صلاح الدين) ويهنئه بكسر الإفرنج، وملك بلاد الشام [2] :

لست أدري بأيّ فتـــحٍ تُهنأ يا منيل الإســلام ما قد تمنى

كلُّ فتحٍ يقولُ إنِّـــي أولـــى وهو أولى لأنـــه كـــان أهنا

أنهنيك إذا تملكـــت شامـــا أم نـهنيـــك إذ تملـــكت عَدْنا

قد ملكت الجنان قصرًا فقصرًا إذ فتحت الشّـام حصنا فحصنا

---

[1] ديوان ابن الساعاتي: 411/2 .

* هو عز الدين أبو القاسم هبة الله بن الرشيد أبي الفضل بن المعتمد بن سناء الملك أبي عبدالله بن هبة الله بن محمد السعدي ، المعروف بابن سناء الملك ، ولد حدود سنة 550 هـ ، وتوفي سنة 608 هـ . انظر : وفيات الأعيان : 6 /61 .

[2] ديوان ابن سناء الملك : 813 –814 .

ويصف ابن سناء الملك استعداد الصليبيين، وجمعهم الجموع، لكن ذلك لم يفدهم أمام بطولة المجاهدين الذين صنعوا من جيشهم وليمة[1] :

قَصدت نحوك الأعادي فـــرد الله ما أملــوه عنْك وعنَّـــا

جمعوا كيدهم وجاؤوك أركانــاً فمن قَــد فارساً هد ركْنـــا

لَم تُـلاق الجيـــــوشَ منْهم ولكنَّك لاَقيَتهم بلاداً ومـــدنا

كلّ مـــن يجعـــلُ الحـديد لـه ثــوباً وطيلساناً وردنـــــا

خانَــهم ذلك السلاح فلا الرمح تَثّــنى ولا الـمـهنَّـد طَّنـــا

صنعت منْـــهم وليمــةَ وحــشٍ رقص المشرفي فيها وغنَّى

ويشير الشاعر إلى أسر ملك الفرنج، ويرسم صورة لترنحه وخوفه واضطرابه مستهزئا به، يقول:

والمـــليـــك العظيم منهم أسير يتَثّـــنى فـــــي أَدهـــــمٍ يـــتَثّـــنى

يحسب النَّوم يقْظـــةً ويظـــن الشَّخْص طَوداً ويبصر الشَّمس دجنا

كـــم تـــمّنـى اللِّقاء حتى رآه فـــــتمّنـــــى لـــــو أنَّه ما تَمنـــى

ويرى الرشيد بن بدر النابلسي* أن هذا النصر قد حقق الآمال ، لذا وجب على المسلمين أن يوفوا بنذورهم، ويقسم بأن فتح القائد صلاح الدين لا مثيل له في الأخبار والسير المروية، ويصور الشاعر بيت المقدس وقد رفعت راية الإسلام فوق خفاقه، وقد أزيل شعار الصليبيين منها وغدا

---

[1] ديوان ابن سناء الملك :2 /716 .

* هو عبد الرحمن بن بدر بن الحسين بن بكار، رشيد الدين النابلسي، مدح صلاح الدين وأولاده، توفي في دمشق سنة (656هـ) ودفن بباب الصغير. انظر: فوات الوفيات ، تحقيق: إسان عباس وآخرين ، دار صادر، بيروت، ج2/ 275 -277 .

صوت القرآن مسموعا، وانطلق صوت الآذان من القباب، بدلا من صوت النواقيس التي كانت تقرع الآذان، وشتان ما بين هذين الصوتين، إذ إن في الأول إثارةً وخشوعاً، تتأثر به حتى الجمادات، وهذا ما لا يستطيعه الصوت الآخر، يقول [1]:

هذا الذي كانـــت الآمال تنتظر — فليــوف لله أقوام بما نـــذروا

بمثل هذا الفتح لا والله ما حكيت — في ســالف الدهر أخبارٌ ولا سِير

يا بهجة القدس إذ أضحى به عَلَمُ — الإســلام من بعد طيٍّ وهو منتشر

يا نور مسجده الأقصى وقد رُفعت — بعد الصليب به الآيات والـــسور

ثم وجه الشاعر خطابه لصلاح الدين:

أضحى بنو الأصفر الأنكاس موعظةً — هذا الذي سلـــب الإفرنج دولتهم

فيها لأعـــدائك الآيـــــات والنذر — وملكهم يا ملوك الأرض فاعتبروا

وهي قصيدة طويلة تزيد على مائة بيت، في مدح صلاح الدين وإشادة بهذا الفتح العظيم، هذا الشعر الذي شوه المستشرقون صورته، وحطوا من شأنه، وسمّوا شعر ذلك العصر بشعر الانحطاط؛ لأنه يذكرهم بهزائم أجدادهم، وفضائح أسلافهم، وهمجية جيوشهم.

لقد تسامع الناس بهذا النصر الكريم، والفتح العظيم، فوفدوا للزيارة من كل فج عميق، وسلكوا إليه كل طريق، وأحرموا من البيت المقدس إلى البيت العتيق[2]، وجلس السلطان صلاح الدين للهناء

---

[1] الروضتين : 118/2 .

[2] انظر : الفتح القسي في الفتح القدسي : 134 .

ولقاء الأكابر والمتصوفة والعلماء، ووقف الشعراء ينشدون الأشعار"[1] مهنئين السلطان بهذا الفتح وزوال الرجس والشرك، يقول العماد:

أَبشر بفتحٍ أمير المؤمنين أتى وصيتُه في جميعِ الأرضِ جواب

ما كان يخطُر في بالٍ تَصـــوره واستَصعب الفتح لما أُغْلق الباب

وجاء عصرك والأيام مقـــــبلَةٌ فكان فيه لفيضِ الكُفْرِ إنْضـــاب

بِفتْحه القدس للإسلام قد رتجتْ في قَمعِ طاغية الإشراك أَبواب[2]

ويربط بين فتح مكة وفتح القدس، مبينا انتصار الحق في النهاية:

ففي موافقة البيت المقدسِ للبيت الحرامِ لنا تيـــه وإعجـــاب

والصخْر والحـــجر الملثوم جانبه كلاهما لاعتمارِ الخلْق محراب

نَفى من القدس صلباناً كما نُفيتْ من بيت مكَّة أزلام وأنصـــاب[3]

ويفخر العماد بزوال الرجس، وتطهير البيت المقدس من الشرك، وأنه نزع لباس الكفر عن أرضها والبسها لباس التقوى والإيمان، ويقول مادحاً صلاح الدين [4]:

فلا يستحق القدس غيرك في الورى فأنت الذي من دونهم فتح القدسا

ومن قبل فتح القدس كنت مقدســـا فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا

---

[1] المصدر نفسه : 130 .

[2] ديوان العماد : 75 –76 .

[3] المصدر نفسه : 76 .

[4] ديوان العماد : 230 – 234 .

وطهرته من رجســـهم بدمائـــــــهم فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجسا

نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها وألبستـــها الدين الذي كشف اللبسا

وعادت ببيت الله أحـــــــــكام دينه فــلا بطركا *أبقيت فيها ولا قســـا*

وقد شاع في الآفـــــاق عنك بشارة بأن أذان القـــدس قد أبطل النقسا

جرى بالذي تهوى القضاء وظاهرت ملائكـــــة الرحمن أجنادك الحمسا

ويقول أيضا مادحاً السلطان الناصر بأنه خلّص القدس من المرض الذي أصابها، فكان هو الطبيب الماهر الذي خلص القدس من آلامها [1]:

والقـدس أعضل داؤه من قبلكم فوفيـــــــتم بشـــفاء ذاك المعضل

درج المــلوك على تمني فتحه زمـــنا وغلـــــتهم به لم تبلـــــل

وأتـــــــى زمانكم فأمكن آخرا ما قد تعـــذر في الزمـــان الأول

ما كان قد ولا يكون كفتـــحكم للقدس في الماضـــي ولا المستقبل

أوجدتم منـــه الذي عدم الـــورى وفـــعلتم في الفتـــح ما لم يفـــعل

---

* البطْرك: معروف مقدم النصارى، كما أن البطريق مقدم جيش الروم ، انظر ، ، ابن منظور ، محمد بن مكرم (ت 711 هـ/ 1311 م) ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج 10، مادة بطرك ، ص 401 . وانظر ، جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار الساقي ، بيروت ،ج 4 ، : 215 .

* القس وّالقسيس : العالم العابد من رؤوس النصارى ، وقيل إن الآية : ﴿ ولتجد ن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ﴾ (المائدة ، الآية 85) ، نزلت فيمن أسلم من النصارى ، وقسس : تتبع الشيء . انظر ، لسان العرب ، مج 6، مادة قَسس، ص 173 وانظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج 12 ص 216

[1] ديوان العماد : 324 .

أيدي الملوك تقاصرت عن مفخر طلـــــتم به فـــبلوا لبعض الأنمل

أحيـــيتم فرع الـــكرام ولم يزل نصـــر المحـــق بكم وقهر المبـطل

وللعماد أيضا قدسية رائعة يهنئ فيها صلاح الدين بهذا النصر المبين، ويرى أن بهذا الفتح أصبح خير الماضين، وأفضل أهل زمانه[1]:

رأيتُ صلاحَ الدين أفضلَ من غدا وأشرفَ من أضحى وأكرمَ من أمسى

بطونُ ذئاب الأرض صارتْ قبورُهم ولم ترضَ أرضٌ أن تكون لهم رَمْسا

وطارتْ على نار المواضي فراشُهم صلاءً فزادت من خمودهم قَبْســـا

وقد خشعت أصواتُ أبطالها فما يعي السمعَ إلا من صليل الظُبى همسا

تُقادُ بدأ ماءِ الدماءِ ملوكـــهم أُسارى كسَفْنِ اليمِ نُطتْ بها القلْـــسا

سبايا بلادُ الله مملوءةٌ بـــها وقد شُريت بخساً وقد عُرِضت نخـسا

يُطاف بها الأسواق لا راغبٌ لها لكثرتها كم كثرةٍ توجب الوكْـــــسا

شكا يبساً رأسُ البرنسِ الذي به تـــندى حســـامٌ حاسمٌ ذلك اليُبـسا

حسا دمَه ماضي الغرارِ لقـــدره وما كان لـــولا غدرُه دمُه يُحـــــسى

فلله ما أهدى فـــــتكتْ به وأطـــهرَ سيفاً معدماً رجسَـــه النجسا

لقد سقطت الصلبان، فأبطلت النواقيس، وحل التوحيد محل التثليت، وقد أنزل المسلمون عند الفتح عن رأس قبة الصخرة صليبا مذهبا، وحينما سقط صاح الناس كلهم صوتا واحدا، المسلمون كبروا

---

[1] المصدر السابق :230 ، وانظر الروضتين : 102/2 -103 .

فرحا، والفرنج صاحوا تفجعا وألما[1] وفي ذلك يقول ابن المجاور الوزير العزيزي في قصيدة أنفذها لصلاح الدين، تبدو فيها الثنائيات الدينية واضحة:

قَد أَنْصف التوحيد من تثليثهِم وأقام في الإنجيلَ حد المصحف

أحييت دين محـــــمد وأَقمَتَه وسترَته من بعد طولِ تَكشُّف [2]

وللشاغوري * قدسية رائعة وملحمة ملتهبة تربو على مئة بيت، ومطلعها[3]:

تُبنى الممالكُ بالوشيج الأسمر والبيْضُ تلمع في العجاج الأكدرِ

وفيها وصف قوة الجيش وبسالته ورایاته الخفاقة وسرعة فتحه للمدن والقلاع الساحلية، ودخوله بيت المقدس قهرا [4]:

فلجيشه ولعزمه متضائـــل جيش الهرقل وعزمه الإسكندر

راياته صفرا تردن وتنثـــنى حمـــرا تمج نجيع آل الأصفر

لِمَ لمْ تدن شوس الملوك وقد ملك السواحل في ثلاثة أشهر

واستنقذ البيت المقدس عنوة من كلّ ذي نجس بكل مطهر

---

[1] الكامل : 11 / 551 .

[2] الروضتين : 3/ 366-367

* هو ابو محمد فتيان بن علي جمال الدين الأسدي النحوي الشاغوري ، ولد الشهاب الشاغوري سنة(530هـ) في بانياس الساحلية ، وتوفي سنة (615هـ) ، له ديوان سمي باسمه . انظر : خريدة القصر :247/1 .

[3] ديوان فتيان الشاغوري ، تحقيق :أحمد الجندي : 140

[4] المصدر نفسه : 141 .

ويوم فتح بيت المقدس كان مخيفا، وفيه أظلمت الدنيا، وكأنه يوم الحشر على الأعداء، وبعده عاد الصفاء إلى الدنيا، واجتمع للإسلام الصخرة والمشعر الحرام[1]:

فلقد وأدت الشركَ يوم لقيتهم وغدوتَ للإســـلام عين المنشرِ

ورأيتَهم لما التقى الجمعـــانِ بالبيت المقدس هولَ يوم المحشر

ورددت دينَ اللهِ بعد قطوبـــــهِ بالمسجد الأقصى بوجهٍ مســفرِ

حتى جمعت لمعشر الإسلام بين الصخرةِ العظمى وبين المـــشعر

فلصخرة البيت المقدس كفـؤها الحجر المفضل عند أفضل معشر

وفيها يصور عظمة هذا الفتح، فكل الفتوح السابقة دونه، وفاتحه هو ناصر الإسلام ورب الملاحم ورب الكرم والمروءة [2]:

فتحٌ تطأطأَ كلُ فتـــحٍ دونه والشمسُ تكسف كلَ جسم نيّر

يا ناصر الإسلام فزت لمورد حسنِ الثنا في العالمين ومصدر

البحرُ أنت لك السواحل باعثا سحب الحيا جودا وقاذف جوهر

أنشأت ملحمة ثمل مقاتـــل الفرسان بالعدد الذي لم يحـصر

---

[1] المصدر السابق: 142 .

[2] ديوان فتيان الشاغوري : 146 .

ثم نجده ينتقل إلى وصف المعركة بعد أن حمي وطيسها، والتهب أوارها، وتداعى فرسانها وبدأ الطعن، فقطعت رؤوس وأطيح بهامات، وتجندل أبطال، عندما ولى الأعداء ورماح المسلمين تخرق ظهورهم وسيوفهم تحزّ رقابهم[1]:

جاشت جيوشُ الشرك يوم لقيتَهم يتذامرون على متون الضُمَّرِ

وكأنهم بـــــحرٌ تدافع موجُـــه بظُبىً وزعفٍ محكمٍ وسنّــورِ

أوردتَ أطرافَ الرماح صدورَهم فولعن في علق النجيع الأحمرِ

فهناك لم يُرَ غيرُ نجمٍ مقبلٍ في إثرِ عفريتٍ رجيمٍ مدبــرِ

ولوْا وعقبانُ المنون مسـفةٌ والخيلُ تعْثُر بالقنا المتكـّسر

لا ينظرون سوى حُسام مشهرٍ ومن الدّماء كأنه لم يشـــهر

ويتغنى ابو الفتح الجيلاني مرة أخرى ببطولة صلاح الدين وأن شرف هذا الفتح خلده[2]:

تصاريفُ دهرٍ أعربت لمن اهتدى وبسطة أمر أغربتْ من تمـــردا

لسرعة فتح القدس سرٌّ مغيـبٌ وفي صرعة الإفرنـج معتبرٌ بـدا

أتوا كجبال أبرمت لإسارنـــــا فسُقناهم فيها قطيناً مجـــــددا

---

[1] المصدر السابق: 147 .

[2] ديوان المبشرات والقدسيات : 111 .

ولأبي الفضل قدسية أخرى يسميها الفتحية الناصرية، ومطلعها[1]:

فِي بَاطِنِ الغَيْبِ مَالا يُدْرِكُ الفِكْرُ فَذُو البَصِيْرةِ فِي الأَحْداثِ يَعْتَبِرُ

مَا لِي أَرَى مَلِك الإفْرِنْجِ في قَفَصٍ أَيْنَ القواضِبُ والعَسَّالَةُ السُّمْرُ؟!

يا وَقْعَةَ التَّلِّ ما أَبْقَيْتِ مِنْ عَجَبٍ جَحَافِلَ لَمْ يَفُتْ مِنْ جَمْعِهُا بَشَرُ

وصور جعفر بن شمس الخلافة، بشعره السلطان الناصر صلاح الدين بأنه منقذ القدس بقوته وعزيمته [2] :

وأصبح للبيت المقدس منقذا بأصلب عزم من مقارعة الصّلب

ويقول الشاغوري، إن فتح بيت المقدس كان نصراً عظيماً، فاق الملاحم المعروفة في تاريخ الأمم منذ القدم [3]:

ربُّ الملاحم لم يؤرخ مثلها العلماء قدما في قديم الأعصر

لقد كان هذا الفتح بشائر أطلت على الأفق، فأشاعت الاطمئنان والسعادة للأثر الإيماني الذي تركه، من كسر الصليب وإعادة الطهر للقدس كما يقول ابن جبير الأندلسي (ت614 هـ) :

اَطلَّتْ على أُفْقك الزاهـــــرِ سعود من الَفَلك الـــدائِرِ

فأبشر فإن رقاب العـــدى تُمد إلى سيفك الـــــباترِ

---

[1] المصدر السابق: 113

[2] ديوان ابن شمس الخلافة : ص25.

[3] ديوان فتيان الشاغوري : 141 .

كَسرت صليبهم عـــــنوةً فلله درك من كاســـــرِ

فَتحت المقدس من أَرضـه فَعادت إلى وصفها الطاهرِ

وجِئْتَ إلى قُدسه المرَتضى فخلَّصَته من يد الكـــافرِ

وأعَليتَ فيه منار الـــهدى وأحييت من رسمه الداثرِ[1]

وهكذا نرى أن فتح بيت المقدس قد ترك صدى مدويا في العالم الاسلامي آنذاك، فتسابق الشعراء والأدباء للاشادة بالبطل المحرر، وبالنصر العظيم المتمثل بتخليص بيت المقدس من رجس المحتلين ولقد صدق العماد الأصفهاني حين قال: " فقد جعل الفتح العيون من فرط المسرة تدمع، والقلوب للفرح بالنصر تخشع، والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع ".[2]

---

[1] شعر ابن جبير: 46 – 47 .

[2] الفتح القسي : 130

رابـــــعاً:

الدراسة الأدبية لشعر بيت المقدس في عهد صلاح الدين الأيوبي

أولا: بناء القصيدة:

قسم النقاد العرب القدماء – في حديثهم عن القصيدة العربية – القصيدة إلى أجزاء ثلاثة: المطلع والتخلص ثم الخاتمة، واشترطوا على الشاعر أن يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة، فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الإصغاء[1]، وما الحديث عن هذه الأجزاء الثلاثة سوى حديث عن وحدة القصيدة، ولكنها وحدة شكلية تقوم على التدرج والتسلسل الذي يفضي فيه موضوع إلى آخر بعلاقة تسمى التخلص، بحيث تتركب القصيدة في النهاية من أقسام أساسية [2].

ولم يترك النقاد أمر هذه الأقسام مفتوحا للشعراء، بل اشترطوا على الشاعر أن يناسب ويلائم ملائمة دقيقة بين المعاني في كلّ قسم من هذه الأقسام، وعدّ ابن الأثير ذلك "دليلا على براعة الشاعر، وقوة تصرفه، بحيث تكون المعاني مترابطة، متماسكة، يفضي كل معنى إلى الآخر من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاما آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغا"[3].

وأخذ كثير من الشعراء في عهد صلاح الدين الأيوبي بهذا المعنى والمفهوم لوحدة القصيدة، فقسموا قصائدهم إلى أقسام ،يفضي كل قسم إلى الآخر في كثير من الأحيان، فنجد أن الشاعر أجاد في بعض القصائد، فتاتي مثالا في الجودة والإتقان.

---

[1] الوساطة : 74 .

[2] القاضي الجرجاني : 181.

[3] المثل السائر : 121 .

أ- المطلع :

حرص الشّاعر الأيوبي على اختيار مطلعه كونه أول ما يقع في السّمع من القصيدة، والدّال على ما بعده[1]، فالشّعر "قفل أوله مفتاحه وينبغي للشّاعر أن يجوّد ابتداء شعره فإنه أول ما يقرع السّمع وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة"[2]، ودعا أسامة بن منقذ إلى تحسين الابتداءات فإنها" دلائل البيان"[3] ولذلك اشترط النّقاد في المطلع جودة الأسلوب، إذ يجب أن يكون أسلوب الشّاعر فخماً قوياً مؤثراً، وحلواً سهلا، حيث يؤثر في السّامع، ويشده إلى باقي أجزاء القصيدة [4] واشترطوا "أن يكون مطلع القصيدة دالاً على ما بنيت عليه مشعراً بغرض النّاظم، من غير تصريح، بل بإشارة لطيفة تعذب حلاوتها في التذّوق السّليم، ويستدل بها على القصيدة، من عتب أو عذر أو تنصل أو تهنئة أو مدح أو هجو"[5] وإذا قام الباحث بتطبيق ما قيل من آراء حول المطلع على شعر بيت المقدس، يلاحظ اهتمام الشّعراء بمطالعهم فقد اختاروا الألفاظ السهلة الأنيقة، والقوية المؤثرة فقد تنوعت المطالع، فمنها ما جاء للتغني بالنصر والمدح وأخرى في الرثاء والوصف.

ومن المطالع التي جاءت في التغني في النصر قول ابن سناء الملك يمدح الملك الناصر [6]:

لَسْتُ أدري بأيِّ فَتْحٍ تُهنَّا يا مُنيل الإسلام ما قد تَمَنَّى

---

[1] الصناعتين : 489 .

[2] العمدة : 1/ 217 .

[3] البديع في نقد الشعر : 400 .

[4] المصدر السابق : 217 -218 .

[5] خزانة الأدب : 30/1 .

[6] ديوان ابن سناء الملك : 813 .

كلُّ فتح يقول إنِّي أولـى وهـو أولى لأنّـه كـان أهـنـا

فقد تغنّى ابن سناء الملك في مطلع قصيدته بالنصر الذي جاء على يد السلطان الناصر صلاح الدين، ويهنئه بكسر الفرنج.

ومن المطالع التي قيلت في التغني والنصر، مطلع قصيدة ابن الساعاتي، يقول[1] :

أعيّاً وقد عاينتم الآية العظمى لأية حالٍ تدخرُ النثر والنظما

ومطلع قصيدة الرشيد بن بدر النابلسي[2]:

هذا الذي كانت الآمال تنتظر فليوف لله أقوام بما نذروا

ومطلع قصيدة أبو الحسن الأندلسي[3]:

أطلت على أُفْقك الزاهر سعودٌ من الفلك الدائر

فأبشر فإن رقاب العدا تُمدّ إلى سيفك الباتر

فقد جاءت معظم القصائد التي قيلت في التغني والنصر قوية موحية معبرة عن الحدث والقصد، مستمدة من الحدث ذاته، ومن الواقع الذي يحيط به، متلائمة مع موضوع الحدث، واضحة الدلالة على المعاني المقصودة. ولا تقلّ عنها شأنا مطالع القصائد التي قيلت في مدح السلطان الناصر صلاح الدين منها مطلع قصيدة عبد المنعم الجلياني[4]:

---

[1] ديوان ابن الساعاتي : 385/2.

[2] الروضتين : 2/ 118 .

[3] المصدر السابق : 105/2 .

[4] ديوان المبشرات والقدسيات : 134

اللَهُ أَكبَرَ أَرضُ القُدسِ قَد صَفَرتَ مِن آلِ الأَصفَرِ إِذ حينَ بِهِ حانوا

ومن مطلع قصيدته المدحيّة أيضا في مدح صلاح الدين عند فتحه القدس [1]:

أبا المظَفَر أنتَ المُجتبي لهدى أُخرى الزمان على خُبْرٍ بخبْرته

ومطلع قصيدة العماد الأصفهاني في مدح الخليفة الناصر صلاح الدين[2] :

وَرثت من سلفي رقّى لطاعته وذلك الرِّقُ للأسلاف أحسابُ

فالناظر في المطالع السابقة يجدها تدلّ على مضمون القصيدة بجودة أسلوب الشعراء وحلاوته حيث يؤثر في نفس المتلقي ، ويشده إلى باقي القصيدة .

ومن المطالع أيضا والتي جاءت معبرة ، وموحية ، ودالة على موضوع الحدث، ما يبدو جليا في مراثي القدسيات ، ومنها المرثية المنسوبة إلى الأبيوردي [3]:

مزجنا دماءً بالــدموع السواجم فلم يـبق منّا عرضة للمراحـــمِ

وشرُ سلاحِ المرء دمع يفيضه إذا الحرب شبتْ نارها بالصوارِمِ

ب- حسن التخلص :

حرص النّقاد على الاهتمام بالتّخلص، لأنه نتيجة طبيعية لوجود مقدمة تمهد للدّخول في الموضوع الرّئيس للقصيدة، لذلك سار شعراء هذا العصر على طريقة القدماء في بناء قصائدهم، وإن تحرروا

---

[1] المصدر السابق : 135 .

[2] ديوان العماد : 74 .

[3] ديوان الأبيوردي : 2/ 150 .

منها في بعض الموضوعات التي لا تستدعي اصطناع المقدمات لسيطرة عواطف الشّوق والحنين عليهم، لذلك بنيت القصيدة من أولها إلى آخرها على موضوع واحد، وفكرة واحدة، وعاطفة واحدة، ويعرّف التّخلص بأنه "هو أن يستطرد الشّاعر المتمكن من معنى إلى آخر يتعلق بممدوحه، بتخلص سهل يختلسه اختلاساً رشيقاً دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السّامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقع في الثّاني، لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما، حتى كأنهما أُفرغا في قالب واحد"[1] ويعتبر ابن رشيق القيرواني أن الانتقال إلى الموضوع الرّئيس، هو النّقلة المعنوية الأبرز بين تلك الموضوعات[2]، ومن الأمثلة على التّخلصات والانتقال من موضوع إلى آخر في هذه الدّراسة، قول العماد الأصفهاني في التنبؤ بالفتح القدسي[3]:

يؤملُ المملوكُ مملوكةً　　تبدل الوحشةَ بالأنـــس

ومنها:

لا زلتَ وهابا لما حـازه　　سيفُك من حُور ومن لُعسِ

وإنني آمل من بعـدها　　كرائم السبي من الـقدس

لقد تخلص العماد من الأبيات الأولى التي بدأ مطلعها بالمدح، تخلصا حسنا رشيقا دون أن يشعر المتلقي به، وانتقل إلى الحديث عن ممدوحه الشجاع الذي لم ينم عن الجهاد ساعةً واحدة.

---

[1] خزانة الأدب : 1/ 329 .

[2] العمدة : 1/ 239

[3] ديوان العماد : 239 .

ومن القصائد التي أحسن فيها التخلص، قصيدته يوم فتح القدس، والتي بدأ مطلعها بالمدح [1]:

استوحش القلب مُذ غِبتم فما أنسا وأظلـم اليـومُ مُذ بُنتُم فما شمسَا

ما طبت نفساً ولا استحسنتُ بعدكم شيئا نفيساً ولا استعذبت لي نَفَسا

ثم ينتقل يتخلص من الأبيات السابقة تخلصا محمودا رشيقا دون أن يشعر المتكلم:

قـلْ للمليك صـلاح الديـن أكـرمَ مـن يمشي على الأرضِ أو من يركبُ الفرَسا

من بعد فتحكَ بيت القدسِ ليس سوى صـورٍ فـإن فُتحـتْ فـاقصـدْ طرابلسا

ثم ينتقل انتقالا آخر في نفس الأسلوب من غير أن يشعر المتلقي بذلك:

يا يوم حطينَ والأبطالُ عابسةٌ وبالعجاجة وجه الشمس قد عبسا

رأيتُ فيه عظيمَ الكفرِ محتقراً مُعَفـرّاً خـدّه والأنـفُ قـد تَعِسا

وبهذا نجد أن بعض الشعراء قد حرصوا على التخلص حرصا شديدا، واعتنوا بالخروج من جزء إلى جزء خروجا يشعر بالتحام الأجزاء وتماسكها.

ج- الخاتمة:

حرص الشّعراء على أن يختموا قصائدهم بأحسن خاتمة، لأنها آخر ما يبقى في الأسماع، فإن كان ابن رشيق القيرواني قد أشار إلى أن المطلع مفتاح، لم ينس أن يجعل لهذا المفتاح قفلا حيث يقول: " قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وإذا كان أول الشّعر مفتاحاً له وجب أن

---

[1] ديوان العماد : 227 – 230 .

يكون الآخر قفلاً"[1]، واشترط بعضهم في الخاتمة أن تناسب عرضها، كأن تكون سارة في المديح والتهاني، وحزينة في الرّثاء والتّعازي، إضافة إلى ذلك أن تكون ألفاظها مستعذبة، وتأليفها جزلة متناسبة، وأن تكون أجود أبيات في القصيدة، وأدخل في المعنى الّذي قصد له الشّاعر في نظمها[2] ومعنى ذلك أن الخاتمة خلاصة القصيدة، وعدم اهتمام الشّاعر بها يعدّ نقصاً ومأخذاً عليه، لذلك اعتني الشّعراء الأيوبيون بخواتم قصائدهم، ومنها خواتيم قدسيات الجلياني، معبرا عن التغني بالنصر والفتح، أو الإشادة بالبطل، فيقول[3] في مطلع قصيدته:

أبا المظفّرِ أنت المجتبى لهدىً أخرى الزمان على خْبَرٍ بخبْرَتِهِ

ويختم قصيدته بقوله :

حتى يكونَ لهذا الدين ملحمةٌ تحكي النبوة في أيام فَتْرتِه

فنجده في هذه القصيدة قد واءم بين مطلع قصيدته وبين خاتمتها رابطا بين تلك الأيام في عهد صلاح الدين الأيوبي والأيام النبوية، وقد جاءت خاتمة الجلياني حسنة المأخذ، مناسبة لغرضها، وألفاظها سهلة ومألوفة، وقوله أيضا في خاتمة إحدى قصائده المبشرات [4]:

فقد بدأ مطلع قصيدته بمدح السلطان الناصر صلاح الدين، بقوله:

فيا ملـــكا لم يبـــق للــدين غيرُه وهت عُمُدُ الإسلام فاشدد لها دَعْما

---

[1] العمدة : 1/ 239 .

[2] منهاج البلغاء : 306 .

[3] ديوان المبشرات والقدسيات : 135 – 136 .

[4] المصدر السابق : 133 .

ويختم قصيدته بقوله :

وليس كفتحِ القدس مُنية قــادرٍ وما أن تـلقّاها سوى يـوسـف جَزما

فنجد أن الخاتمة هنا جاءت موافقة للمطلع فقد بدأت بالمدح وانتهت به.

وبالتالي فنجد ان معظم الشعراء حرصوا على جمال الخاتمة، واجتهدوا في رشاقتها وحلاوتها وجزالتها، لتبقى ثابتة ومستقرة في الأسماع.

ثانيا: اللغة الشعرية :

أ– المعاني والألفاظ:

اهتم النقاد بلغة الشعر، وربطوا بين المعنى واللفظ، لأن كلا منهما متمم للآخر في العمل الأدبي، ويرى ابن رشيق أنَّ "اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصًا للشعر، كذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ، ولا نجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ. وجزْيِه فيه على غير الواجب" [1] فاللفظ والمعنى أهم ركيزتين يرتكز عليهما الشعر، وبهما يكون التأثير في النفوس[2]، وعلى الشاعر الحاذق أن ينتقي أرقى الألفاظ وأفضلها حتى تساعده في أداء المعنى وإتمامه، فلا يصح أن يكون المعنى صائبًا، واللفظ فاترًا ركيكًا، وفي ذلك مدعاة إلى استهجانه وذمه ورفضه[3]، وهذا يتطلب من الشاعر أن يتقن الربط بين أسلوبه وموضوعات شعره، فالأسلوب" هو

---

[1] العمدة : 124/1 .

[2] أسس النقد الأدبي :363 .

[3] العسكري، الصناعتين :59 .

الطريقة الخاصة التي يصوغ فيها الكاتب أفكاره، ويبين بها ما يجول في نفسه من العواطف والانفعالات"، "والحديث عن الأسلوب بألفاظه وتراكيبه حديث عن لغة الشعراء. وتأتي أهمية الحديث عن اللغة الشعرية؛ لكونها القالب الذي تسكب فيه التجربة الشعرية، وهي الوسيلة الوحيدة التي تتبلور بها عناصر الشعر جميعا بانفعالاته وأفكاره"[1]، واشترط النقاد حسن الربط بين الأسلوب وغرض القصيدة، فلكل مضمون ألفاظه الخاصة به، فألفاظ المديح مثلا، لا يستعملها الشاعر في الهجاء[2]، وألفاظ المديح الجزلة لا تستعمل في غرض الغزل الذين يحتاج إلى ألفاظ رقيقة سهلة [3].

يقول ابن أبي الإصبع:" ومن ائتلاف اللفظ مع المعنى أن يكون اللفظ جزلا إذا كان المعنى فخمًا، ورقيقًا إذا كان المعنى رشيقًا" [4] ودعا النقاد إلى حسن عرض المعنى بألفاظ مناسبة، " لأن الكلام إذا كان لفظه غثًّا ومعرضه رثًّا، كان مردودا، ولو احتوى على أجلّ معنى وأنبله، وأرفعه وأفضله"[5]، والسهولة في الألفاظ والتركيب مدعاة إلى موافقة المعنى، وأدائه للمتلقي على أتم وجه، ويرى العسكري أن "الكلام يحسن بحسن سلاسته، وسهولته، ونصاعته، وتخير لفظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعه، ولين مقاطعه"[6]. ومبدأ السهولة من خصائص الشعر في العصور المتأخرة، وكانوا يقيسون به جودة الشاعر. ولم يغفل النقاد الحديث عن فصاحة الألفاظ في الشعر،

---

[1] الحركة الأدبية: 299/2 .

[2] أسس النقد الأدبي: 477

[3] العمدة: 1/ 116

[4] تحرير التحبير: 195

[5] الصناعتين: 67

[6] المصدر السابق: 55

واشترطوا في الكلام " خلوصه من ضعف التأليف، وتنافر الكلمات، والتعقيد"[1]، لأن ذلك من شأنه إبعاد المعنى عن السامع وإبهامه، لضعف التركيب، أو ثقل الكلام على الأسماع وصعوبة النطق به[2] والناظر إلى الشعر في بلاط الملك الناصر يجده موافقا –في معظمه– لما ذهب إليه النقاد واشترطوه، فكان يتصف بالسلاسة، والسهولة، والتلاؤم بين اللفظ والمعنى، ولا غرابة في ذلك لأنه ينطلق من عاطفة صادقة ويصور إحساسا متدفقا، ومما يؤكد مبدأ السهولة والتلاؤم في أشعارهم ما نظمه عمارة اليمني، يمدح الملك الناصر صلاح الدين في قصيدة مطلعها [3]:

لك الحسب الباقي على عقب الدهر بل الشرف الراقي إلى قمــة النَّسر

لئــن نصبوا في البــرّ جسرا فإنــكم عبرتم ببحر من حديد على الجسر

طريــق تقارعتــم عليها مع الــعدا ففزتم بها والصخر تقرع بالصخر

ومن القصائد التي اتصفت بالسلاسة، والسهولة، والتلاؤم بين اللفظ والمعنى، ما نظمه العماد الأصفهاني [4] :

فديتُـــــك من ظالم منصفِ وناهيكَ من باخلٍ مُسعفِ

فسرْ وافتح القدسَ واسفك به دماءً متى تُجــرها ينظفِ

وأهدِ إلى الأسبـــتار البــتار وهُدَّ السقوف على الأسقفِ

---

[1] بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة :14/1 .

[2] المصدر السابق : 1/ 15 .

[3] الروضتين : 412/1 . و النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية : 270 .

[4] ديوان العماد : 301 .

وخلصْ من الكفر تلك البـلادَ يخلصكَ ربُّك في المــوقفِ

وايضا ما نظمه ابن الساعاتي، بمدح الملك الناصر[1] :

ما بعدُ لُقْياك للعافين من أملِ ملك الملوك وهذي دولةُ الدول

فليعلم القدس أن الفتح منتظرٌ حلوله وعلى الآفـــــاق فليطل

وقد نظم ابن سناء الملك قصيدته بمدح السلطان الناصر صلاح الدين [2]:

لست أدري بأيّ فتـــحٍ تُهنأ يا منيل الإســلام ما قد تمنى

كلُّ فتحٍ يقولُ إنِّـــي أولـــى وهو أولى لأنـــه كـــان أهنا

أنـهنيك إذ تملكـــت شامـــا أم نـهنيـــك إذ تملـــكت عَدْنا

فنجد أن ألفاظ ابن سناء جزلة ومعانيه فخمة ورقيقة، لا يستصعب المتلقي منها.

وقد استخدم الشعراء ألفاظا ومصطلحات إسلامية، وهي تعكس الأثر الديني الجلي في هذه الأشعار القدسية، وهي مستمدة من القرآن الكريم، أوالحديث النبوي الشريف، أومن الواقع الذي يتحدث عنه الشعراء متمثلا في الفتح القدسي وآثاره، أو من التاريخ الإسلامي، وذلك عندما كان الشعراء يربطون بين حاضرهم وماضي أمتهم الإسلامية، وفي فتوحاتها الحاسمة في تاريخ الإسلام، وتبدوا هذه الظاهرة شائعة في القدسيات [3].

---

[1] الروضتين : 2/ 38 ، 39 .

[2] ديوان ابن سناء الملك : 813 .

[3] انظر : بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : 263 .

ومن ذلك ما يعبر عنه ابن الساعاتي حول تحرير بيت المقدس ، فيقول [1]:

رددت " أخـــيذة الإسـلام " لمّا غدا صَرْف " القضاءِ " بها ضمينا

فقضيت "فريضة الإسلام " منها وصــدّقت الأمـانـــي والـظنـونـا

ويقول فتيان الشاغوري [2] :

ورددت دين الله بعد قطوبـــــه بالمسجد الأقصى بوجه مسـفر

ويستخدم العماد الأصفهاني من الألفاظ والتعبيرات: مثل الطهر، والقداسة وبيت الله والدماء، والرجس، والقنا، كما يبدو في قوله مخاطبا صلاح الدين الأيوبي[3]:

ومن قبلِ فتحِ القدسِ كنت مقدَّسـاً فلا عَدِمتْ أخلاقُك الطُّهرَ والقدسا

وطهَّرتَهُ من رجسهم بدمائـــــــهم فأذهبت بالرجسِ الذي ذهب الرجسا

سحبتَ على الأردنِّ رُدناَ من القنـا ردينيـــةً مُلْـــداً وخطـــيةً مُلْسا

وأيضا استخدم بعضهم ألفاظا غريبة ولكن دون أن يخلّ بالمعنى أو بوحدة القصيدة، ومن الألفاظ الغريبة، ما استخدمها الشاعر فتيان الشاغوري في قصيدته[4]:

كَفِعال مَوْلانا صـلاح الـدين ذي المجد الغُدامسِ* والعطاء الكوْثَر

---

[1] ديوان ابن الساعاتي : 406/2.

[2] ديوان فتيان الشاغوري : 142 .

[3] ديوان العماد : 232 ، الروضتين : 89/2 .

[4] ديوان فتيان الشاغوري : 335 .

* اسم مكان ، يقع في الجزء الغربي من بلاد ليبيا .

وكأنَّــهم بحـــرٌ تــدافَعَ مـوْجُهُ بــظُبىً* وزُغْفٍ *مُـحْكَمٍ وسَــنَوَّر*

ومن الملاحظ أن جميع الشعراء الذين تحدثوا في القدسيات، اتسم أسلوبهم بالقوة والجزالة، ومن خلال ما سبق نجد أن معظم الشعراء في عصر صلاح الدين الأيوبي قد ابتعدوا عن الألفاظ الوحشية الغريبة، والسوقية المبتذلة، التي تحط من قيمة العمل الأدبي، والاختيار من الكلام ما كان سهلا جزلا، وتكثر الألفاظ الجزلة والتراكيب الفخمة التي تناسب الموضوع التي قيلت فيه.

ب- الأسلوب:

يراد بالأسلوب طريقة التعبير التي تخيرها الشاعر، لتصوير عواطفه وأحاسيسه، وانتقاء ما يناسبها من ألفاظ وعبارات كي تؤدي معانيه، وقد عرفه الجرجاني بأنه" الضرب من النظم والطريقة فيه" [1]، وقيل عنه:" إن الأسلوب هو الرجل"[2] فالأسلوب طريقة الأديب الخاصة في التعبير عن فكرته الشخصية بما لا يمكن تشكيلها في قالب أُسلوب أديب آخر وحدد نقاد القرن الخامس الهجري جودة الأسلوب في وضوحه " لأن الكلام الذي يعجز عن أداء معناه في وضوح، لايحقق الهدف منه"[3].

وهذا يعني أن عناصر الأسلوب كل لا يتجزأ في بناء القصيدة، وتشكل اللغة لبنة أساسية من لبنات بناء الأسلوب الأدبي، ويصبح لألفاظها أهمية كبيرة لذا يجب أن تكون بين ألفاظ القصيدة

---

* الظُّبَى؛ هي جمع ظُبة وهو طَرَفُ السيف وحَدُّه . انظر : لسان العرب : مادة ظبا .

* وزَعَفَه يَزْعَفُه زَعْفاً وأَزْعَفَه: رَماه أَو ضَرَبه فمات مكانه سريعاً . انظر المصدر السابق : مادة زعف .

* والسَّنَوَّرُ: جُمْلَةُ السلاح؛ وخص بعضهم به الدروع. أَبو عبيدة: السَّنَوَّرُ الحديد كله، وقال الأَصمعي: السَّنَوَّرُ ما كان من حَلَقٍ، يريد الدروع . انظر : المصدر السابق : مادة سنر .

[1] دلائل الإعجاز : 361 .
[2] أصول النقد الأدبي : 258 .
[3] اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري : 190.

علاقة وثيقة تربط بعضها ببعض، محدثة إيقاعاً موسيقياً منسجماً، وبتركيب الألفاظ معاً تتشكل الأساليب المختلفة بمعانيها ومبانيها [1].

وتتفاوت الأساليب بين غرض شعري وآخر كما تتباين لغته، فالأسلوب الذي يناسب الرثاء، وما يتطلبه من ألفاظ شاجية ومعان مبْكية، هو غير الأسلوب الذي يناسب المدح والفخر وما يتطلبه من قوة وجزال، وكذلك الغزل الذي يتطلب الرقة واللطافة.

ومن الظواهر الأسلوبية التي ظهرت عند بعض الشعراء في عهد صلاح الدين الأيوبي مايلي :

– **ظاهرة التكرار في المعاني والألفاظ:** إن الحديث عن الفتح القدسي وآثاره، والحديث عن الفاتح السلطان صلاح الدين، ومواقفه، وخلاله، يتكرر في القصائد الجهادية التي قيلت في التغني بالنصر، والإشادة بالفاتح، كما يبدو جليّا في قصائد العماد الأصفهاني، وابن الساعاتي وابن سناء الملك، وعبد المنعم الجلياني، والرشيد النابلسي، وفتيان الشاغوري.

فتكرار كلمة **(القدس)** في قول العماد الأصفهاني[2]:

فلا يستحقُ القدسَ غيرُك في الورى فأنت الذي من دونهم فتحَ القدسا

ومن قبل فتح القدس كنت مقدســـا فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا

وهذا التكرار اللفظي يعبر عن المكانة العظيمة التي تحتلها مدينة بيت المقدس في النفوس ولعل فن الجناس كان عاملا من عوامل هذا التكرار في شعر العماد الأصفهاني، فهو يجانس بين مدينة القدس، والقدس بمعنى الطهارة، ويلحظ أنّ هذا التكرار، يعدّ عاملا من عوامل إشاعة لون موسيقي في شعر العماد، وينجم هذا اللون الموسيقي عن هذا الجناس، أو تماثل الحروف فيه.

---

[1] الأدب وفنونه : 37.

[2] ديوان العماد : 230

ويشيع تكرار لفظة (القدس) في شعر فتيان الشاغوري[1]:

وأريتَهم لمّا التقى الجمعان بالبيـــ ـــت المقدّس هول يوم المحشر

فلصخرة البيـت المقـدس كـفؤهـا الحجر المفضل عند أفضل معشر

يلحظ أن مثل هذا التكرار في الحديث عن المعارك والفتوحات ، يعبر عن أهمية تلك الفتوحات في نفوس الشعراء.

ويشيع تكرار لفظتي (الفتح) و(الفتوح) :

يقول الشاغوري [2]:

فليهنه الفتح الذي سُدّت به عن مُلكه أبواب غدر الأدهر

فتحٌ تطأطأ كل فتـــح دونه والشمس تكسف كلَّ جسمٍ نيِّرِ

ويقول العماد الأصفهاني [3] :

بـفتـــوحِ عصــركَ يفخرُ الإسلامُ وبنور نصرك تُـشرق الأيـامُ

وبفـــــتح قلعة بعلبك تهذبـــتْ هذِي الممالكُ واستقامَ الشامُ

وبكى الحسودُ دماً وثغرُ الثغرِ من فرحٍ بنصرك للهدى بســـامُ

فتــحٌ تـــسنى في الصيام كأنـنا شـــكراً لما منح الإلهُ صـيامُ

---

[1] ديوان فتيان الشاغوري : 143 .

[2] ديوان فتيان الشاغوري : 142 .

[3] ديوان العماد الأصفهاني : 378 . ، مفرج الكروب : 2/ 30 .

ويقول الجويني [1]:

هذي الفتـــــوح فتوح الأنبياء وما له سوى الشكر بالأفعال أثمان

تسعون عاما بلاد الله تصرخ والـــ إسلام أنصاره صمٌّ وعُميـــــــان

ومن التكرارات التي وردت في شعر بيت المقدس، تكرار كلمة (حطين): ما ورد في قصيدة العماد الأصفهاني [2]:

حطــطت على حطين قدر ملوكهم ولم تبق من أجناس كفرهم جنــسا

ونعم مجـال الخيـل حطيــن لم تكن معاركــها للجرد ضرسـا ولا دهـسا

وهذا التكرار في لفظة (حطين) يدل على المكانة المرموقة التي ملكتها حطين بين شعراء هذا العصر. ومن الأساليب الاخرى التي استخدمها الشعراء في ذلك العصر ، أسلوب النداء والاستفهام والأمر والدعاء والتعجب والقسم، وغيرها من الأساليب.

– أسلوب النداء [3] :

قال أحد الشعراء [4] :

---

[1] الروضتين : 2/ 104 .

[2] ديوان العماد : 238، الروضتين : 89/2 .

[3] وفي اصطلاح البلاغيين جاء تعريفه (حقيقة طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروفٍ مخصوصة)، انظر، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع : 1 / 105 و الكتاب لسيبويه : 2 / 230.

[4] زبدة كشف الممالك : 20 . فقد حكي أن السلطان الناصر صلاح الدين لما كثرت فتوحاته في السواحل ، واوجع فيهم بسهامه وسطوته ،كان لا يتجاسر على فتح بيت المقدس لكثرة ما فيه من العدّة والعتاد ، لكونه كرسي دين النصرانية .

يا أيها الملك الذي لمعالم الصلبان نكـــس

جاءت إليك ظلامة تسعى من البيت المقدس

فنجده قد استخدم أسلوب النداء، للتعبير عن تحقيق أماني المسلمين في تحرير بيت المقدس، فجاء أسلوب النداء هنا للتعظيم.

وقد ظهر هذا الأسلوب في شعر عبد المنعم الجلياني [1]:

فيا ملـــكا لم يبـــق للـدين غيره وهت عُمُدُ الإسلام فاشدد لها دعما

إذا صفرت من آل الأصفر ساحة الـ ـــمقدس ضاهت فتح أم القرى قدما

وجاء أسلوب النداء هنا لتعظيم أمر صلاح الدين الأيوبي ، وعظمة فتحه الذي قام به.

ويستخدم الرشيد النابلسي هذا الأسلوب للدعوة إلى الجهاد ، يقول [2]:

يا مالك الأرض مّهِّدها فما أحدٌ سواك من قائم للهدي ينتظُر

يا خاطبا جنة الفردوس ممهرها أجر الجياد لنِعْمَ الصِّهر والمَهَرُ

- أسلوب الاستفهام:

يشيد ابن الأثير بالشاعر الذي يخرج الخطاب، في المديح، مخرج الاستفهام، ويصف هذا الأسلوب بأنه " أسلوب حسن جدا، وعليه مسحة من جمال، بل عليه الجمال كله" [3].

---

[1] ديوان المبشرات والقدسيات : 133 .

[2] الروضتين : 2/ 118 .

[3] المثل السائر : 189/3 .

ويقول السامرائي:" إن ما يرد في الشعر من الاستفهام مثلا، قد ينصرف إلى معان أخرى تصور الأحوال النفسية، من الألم والحسرة والتعجب والتوجع ونحو ذلك " [1].

يقول الشاعر في رثاء القدس متسائلاً عمّا يحدث لنساء المسلمين في القدس:

أتـُسبى المسلماتُ بـــكل ثغرٍ وعيشُ المسلمين إذاً يطيب؟

أمـــا لله والإســـــلام حـق يدافع عنه شبـــان وشيب

استخدم الشاعر هنا أسلوب الاستفهام الاستنكاري، وكأنه يقول كيف يحدث هذا في أرض الإسلام، ولماذا هم غافلون عنها.

وقد يأتي الاستفهام دلا على الحيرة، فبأيّ الفتوح تكون التهاني، وهي فتوح كثيرة، وهذه الحيرة تدلّ على عظمة تلك الفتوح، كما يبدو في قول ابن سناء الملك[2]:

أنُهنيك إذا تملكت شاما أم نهنيك إذا تملكت عدنا

وقد يأتي الاستفهام معبرا عن عظمة الفاتح، وذلك في قول فتيان الشاغوري في مدح صلاح الدين[3]:

هل تُعجزَن صورٌ مليكا ناصرا لله أين يَسِرْ يُسِرُّ وينصر

فقد استخدم الشاعر هنا أسلوب الاستفهام، مستنكرا بماذا لا تخضع الملوك لصلاح الدين مع أنه إذا ما دخل أرضا فإنها تفتح على يديه بإذن الله.

---

[1] لغة الشعر : 59 .

[2] ديوان ابن سناء الملك : 814 .

[3] ديوان فتيان الشاغوري : 147 .

صورة صلاح الدين الفنية في شعر بيت المقدس:

ونلحظ هنا أن الشعراء قد قلّ حديثهم عن أنفسهم في تلك القصائد التي انصبت في معظمها على تصوير بطولات صلاح الدين وانتصاراته، وتخليد صفاته وأحداث عصره.

وفي هذا دلالة على أنه شعر ملتزم، التزم فيه الشعراء التعبير عن قضايا أمتهم، وأحداث عصرهم، هذا بالإضافة إلى إسهامهم في حل تلك القضايا، فطالما حثوا صلاح الدين والمسلمين على ضرورة الجهاد ومواصلته، لتحرير سائر الأراضي الواقعه تحت الاحتلال، كما يعني مرة أخرى أن المعاني التي دارت حولها تلك القصائد، كانت معان جليلة عكست لنا عواطف الشعراء الإسلامية الصادقة التي دفعتهم إلى إبداع تلك القصائد. وفي هذا إشارة واضحه إلى أن الشعر الذي دار حول صلاح الدين لم يفته شرف المضمون وإن فات بعضه جمال الشكل. وإذا ما نظرنا إلى القوالب الأدبية أو الفنية التي حملت تلك المعاني، لنرى النهج الذي اتبعه الشعراء وساروا عليه، في بناء قصائدهم، وكيفية استخدامهم للألفاظ والصور التي عبروا بها عن تلك المعاني، ومدى تأثرها بالمتعة البديعية التي سادت الأدب في عصر الحروب الصليبية كما رأى بعض مؤرخي الأدب من المستشرقين وغيرهم، فإننا نجد أنهم حافظوا على إطار القصيدة العربيية ذات الشطرين والقافية الواحدة المطردة، رغم وجود أشكال جديدة من النظم شاع استخدامها في أواخر العصر العباسي، كالموشحات والدوبيت، وحافظوا أيضاً على الأوزان الشعرية المعروفة منذ القدم ونسجوا على منوالها.

ولكن هذا لم يمنع من اكتسابها بعض السمات النوعية الجديدة في بعض معانيها وبعض صورها المجازية والحقيقية المستمدة من القران الكريم أو التاريخ أو الحروب الصليبية وغير ذلك.

وكما حافظوا على إطار القصيدة العربية ونسجوا على منوالها أوزانها الشعرية القديمة، حافظوا أيضاً على التقاليد الفنية للقصيدة المادحة، حيث إنهم افتتحوا معظم قصائدهم بمقدمات غزلية

تقليدية، كما كانت تفتتح قصائد الشعر " قديماً بالنسيب وبكاء الأطلال، إلا أنها غالباً ما تكون تطول، وقد انعكس على بعضها جو المديح، فطبعها بطابعه من حيث اختيار الألفاظ الفخمة والعبارات القوية، واختيار الاستعارات والتشبيهات. وبعد هذه المقدمات كانوا ينتقلون إلى مدح صلاح الدين، والحديث عن جهاده وانتصاراته، إلا أنهم قد تخففوا في أحيان غير قليلة من تلك المقدمات الغزلية، واستهلوها بالمدح مباشرة؛ لأهمية المناسبات التي امتدحوه فيها. كما أخر بعض الشعراء في قليل من قصائدهم النسيب وقدموا عليه المدح، لأهمية الممدوح في نظرهم وانشغالهم بتخليد صفاته وتمجيد بطولته وغير ذلك.

وقد توافرت وحدة الموضوع في معظم المقطوعات والمقطعات التي دارت حول صلاح الدين .

أما بالنسبة للقصائد التي غالباً ما تكون، فقد تعددت الموضوعات فيها، ولكن هذا التعدد لا يعني تنقل الشاعر بين أغراض أو موضوعات لا صلة بينهما، أو أن الصلة بينهما ضعيفة، بل كانت أغراض وموضوعات متناسبة ترتبط ببعضها على حد كبير وبخاصة في القصائد التي تخففوا فيها من المقدمات الغزلية، ونغمة السؤال والاستجداء.

وهذا لا يعني أن الوحدة انعدمت في تلك القصائد إلى حد التنافر، بحيث لا يكاد البيت يتصل بسابقه، إذ إنه كثيراً ما انسابت الأبيات في بعض المقطوعات أو القصائد بشكل يستدعي السابق اللاحق، وكونه ما يمكن أن نسميه بالجملة الشعرية المتلاحمة، فضلاً عن تلازم الأفكار وعدم تنافرها.

وهذا أهم ما يتعلق ببناء قصائدهم والنهج الذي ساروا عليه في بنائها، أما بالنسبة للالفاظ التي استخدموها للتعبير عن معانيهم، والايحاء بها وبمشاعرهم في تلك القصائد، فإنهم قد وفقوا إلى حد كبير في اختيارها، فكان هناك انسجام تام بين ألفاظهم ومعانيهم فيها. فقلما نجد كلمة نابية أو

متكلفة أو غريبة، بل لكل لفظ مدلول واضح، وايحاء بالمعنى. هذا فضلاً عن انسجامه مع الجرس الموسيقي الذي يحدثه متناغما مع ألفاظ العبارة. وهي في معظمها تتساند في إشاعة الأجواء النفسية التي عاشها الشعراء، سواء أكانت فرحاً أم سعادة بما حققه صلاح الدين من انتصارات، أو إعجاباً ببطولته وكريم صفاته. هذا الى جانب أنها استطاعت أن تجسد عواطفهم المتأججة تجاه أحداث عصرهم، نتيجة لحسن اختيارهم لها .

علاوة على ذلك فأن جل ألفاظ معجمهم الشعري وعباراتهم، قد تراوحت بين الجزالة والرصانة وبين الرقة والسهولة. وهذا يعني أنهم حافظوا على لغة أشعارهم وجزالتها لا سيما أنهم ابتعدوا في معظمها عن السهولة القريبة من العامية، والكلمات الأجنبية التي انتشرت في أدب تلك الحروب الصليبية بصفة عامة، بما في ذلك العصر الأيوبي، رغم تسرب قليل منها الى أشعارهم. كما أن ألفاظهم في مجموعها جاءت موافقة لقواعد اللغة العربية عدا بعض الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية البسيطة. ولعل من الأسباب التي دفعتهم إلى الحفاظ على لغة أشعارهم ورصانتها ثقافتهم الشعرية الواسعة لمأثور الأدب الموروث القديم، والتي مكنتهم من الجزالة الأصيلة في أشعارهم، وتقديرهم للقدماء، وتمسكهم بالتراث الشعري وعدم تفريطهم بمناهجه وأصوله.

هذا إضافة إلى قوة المعاني والأفكار التي عبروا عنها وجلالها وصدق عواطفهم التي دفعتهم إلى التعبير عنها، دون التكلف الممقوت أو التصنع في استخدام المحسنات البديعية في معظم أشعارهم، رغم ولع الكثير منهم بها، وسيطرتها على أغراضهم الأخرى.

وهذا يعني أن موضوعاتهم كانت صادرة عن عواطف صادقة جياشة أغنتهم عن تعمل الصنعة والتكلف الممقوت فيها.

ولكن هذا لا يعني أن أشعارهم خلت منها، بل استخدموها في أحيان كثيرة استخداماً بارعا جعلها نسيجا متكاملا مع مضمون قصائدهم، بحيث أسهم كلّ من الجناس والطباق وغيرها من المعاني البديعية، في تجلية معانيهم وتأكيدها والإيحاء بمعانيهم الجياشة، وإن كان لا يخلو بعضه من التكلف الممقوت الذي يخرجه عن كونه تعبيرا وجدانيا أو فيضا عاطفيا.

الصورة الفنية:

تعدّ الصورة الفنية من العناصر الأساسية للشعر، ويرتكز عليها تقييم الأعمال وقياس جودتها، وتكشف عادة مواطن الإبداع عند الشاعر وزوايا عبقريته، وتكمن أهمية الصورة الفنية في شحن همة القارئ للوصول إلى المعنى، فيعلق في ذهنه بعد كدّ وتعب مراد الشاعر، وفي المقابل هناك صور يصل القارئ إلى مرادها بسهولة، فلا يتذوق جمالها، ومن هنا كانت الصورة الفنية على ضربين الصورة السطحية البسيطة التي لا تستوقف القارئ، ولا تثير أي إحساس بالإثارة لديه، فلا تحفزه لنيل الدلالة التي تحتويها، لأن دلالاتها ظاهرة سهلة المنال، وعلى النقيض من ذلك الصورة العميقة ذات الفنية العالية في صياغتها واستحضار أجزائها والتأليف بينها على نحو بديع، وفيها تظهر عبقرية الشاعر في جمع أطرافها، مما يحمل على تدقيق النظر فيها وتحليلها لبلوغ ما أراده الشاعر، ويجعلها أعلق في الذهن والعاطفة من سابقتها البسيطة، ومن الجدير بالملاحظة أن الصورة الفنية لا تقتصر على أطراف التشبيه المعهودة، فقد شملت كل ما من شأنه أن يضفي عليها حيوية وصدقا في العرض كاللون والحركة، حتى إنها ترتقي بإعمال حواس الإنسان المختلفة كالذوق والشم واللمس، وبذلك يرتقي التصوير الذي يستطيع أن يتواصل مع حواس الإنسان، مما يعمق الفكرة والعاطفة في نفس القارئ، ويجعلها لصيقة أفكاره ومشاعره.

ويرى جابر عصفور، أن أهمية الصورة الشعرية تكمن في "الطريقة التي تفرض بها علينا نوعا من الانتباه للمعنى الذي تعرضه، وفي الطريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى ونتأثر به، إنها لا تشغل الانتباه بذاتها، إلا لأنها تريد أن تلفت انتباهنا إلى المعنى الذي تعرضه، وتفاجئنا بطريقتها في تقديمه" [1].

فتقديم الصورة بطريقة مختلفة عن الطريقة التي تقدّمها أيّة جماليّة أُخرى، فالعلاقة التي تُحيلنا القصيدة إليها هي المركب بين العاطفة والعقل، بين اللغة الإشارية واللغة المعيارية، لذلك لا يولد المجال الشكلي للقصيدة إلا من خلال جماليّة الواقع ، فنحن عندما نرى الشيء الذي أحالتنا إليه كلمات القصيدة، وصورها لا نراه بعين ظاهراتية مجردة– كما يصطلح عليه بفعل المعنى القصدي – وإنما نراه عبر تبادل معقّد لمستويات الفعل داخل بنية الواقع المشار إليه بالصّور وداخل بنية القصيدة " [2].

وأمّا الغاية من الصّورة الفنية في النّص الشعري فهي "لخلق التوافق النّفسي، وربما كان الغموض الذي يكتنف العنصر الموصوف، وما تحدثه فينا من آثار أقل بكثير من تلك الأسرار المحيطة بالصورة الموسيقية، فالصورة الفنية يقوم عليها تشكيل الصّورة في الشعر الحديث، لأنّ التشكيل الفني في القصيدة معناه إخضاع الطّبيعة لحركة النّفس وحاجاتها، وعندئذ يأخذ الشاعر كلّ الحق في أن يشكل الطبيعة، ويتلاعب بمفرداتها وبصورها الناجزة كيفما شاء ،ووفقا لتصوراته الخاصة، إذ رأى أنّ هذا هو الطريق الوحيد أو الأسلوب الأصدق في التعبير عن نفسه " [3].

---

[1] الصورة الفنية في التراث النقدي :363

[2] المصدر السابق : 365

[3] المصدر السابق : 255

وقد ظهرت الصورة الشعرية في شعر بيت المقدس في جانبين:

- الجانب الاول : تمثّله الصورة الحسيّة التقليدية، والتي تقوم على المشابهة والاستعارة والمجاز سيرا على نهج الشعراء القدماء في صورهم.
- الجانب الثاني : استفاد من التطور الذي أصاب الصّورة الشعرية، فكانت صوره أوسع وأخصب من التشبيه والاستعارة، فهي وإن استفادت منها إلا أنها كانت صورا مركبة وكليّة حملت جانبا كبيرا من الأصالة والإبداع، وتكونت من صور جزئية عديدة.

ومن التشبيهات التي وردت في شعر بيت المقدس، التشبيهات المنتزعة من الواقع، والعصر الذي نعيشه ونشهده ، فتستمد الصورة الفنية من مادته بكل صوره الفنية وتفاصيله الجمالية، التي تمدّ الشاعر بفيض من الصور تتشكل في القصيدة، فترسم لنا لوحة فنيّة زاخرة بالحياة:

– الصورة المفردة:

وهو أن نتخذ الصّورة وضعا صوريا واحدا متفردا عن غيره، وإن كان في الوقت ذاته غير منفصل عن البناء العام للصورة الكلية (القصيدة) [1].

وقد تحتوي هذه الصورة نوعا من التشبيه أو الاستعارة منفردا تحكمه علاقات تفضي إلى الانسجام، وتحقيق التناغم بين أطرافه، مهما بلغت درجة الاختلاف، ويسعى الشاعر في الوقت ذاته لتآلف المتنافرات، وهذا يدلّ على مقدرة الشاعر الإبداعية في ذلك.

أمّا في الصورة المنفردة فيمكن لنا أن نعدّ العلاقة القائمة بين حدّي الصورة التشبيهية والاستعارة، نموذجا يمثل طريقة الشاعر في ترابط العناصر مع بعضها بعضا.

---

[1] الصورة الفنية في شعر أبي تمام : 177

ومن نماذج الصورة المفردة في شعر في شعر بيت المقدس :

يقول الشاعر[1] :

جُندُ الســـــّماءِ لهذا المَلكِ أعوانُ من شكَّ فيهم فهذا الفَتْحُ برهانُ

مَتَى رأى النَّاسُ ما نحكيهِ في زمن وقد مضيت قبل أزمان وأزمان

هذي الفتـــــوح فتوح الأنبياء وما له سوى الشكر بالأفعال أثمان

تسعون عاما بلاد الله تصرخ والـــ إسلام أنصاره صمٌّ وعُميـــــــان

لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد تنزلـــت فيه آيات وقـــــرآن

فالصورة المفردة، شكلت طرفا مهما في القصيدة، فيتحقق الانسجام في اندماج الصورة الحركية، مع الصورة البصرية عمقت الإحساس الحركي في القصيدة، وكثفت المعنى الشعري لمفرداتها، فالشاعر يعمل دائما على تركيز أفكاره، وأوصافه ، وتكثيفها بتشبيه شيء ما بشيء آخر في صورة جديدة.

- الصورة المركبة :

تضم الصّورة في هذا النوع " عددا من الصّور ترتبط كلّ واحدة منها بالأخرى على نحو ما، ويتألف من الجميع شكل صوريّ أوسع وأشمل ،وأكثر تشعيبا وتشابكا " [2].

---

[1] الروضتين : 2 / 104 - 105 .

[2] الصورة الفنية في شعر أبي تمام : 181 .

فالصورة المركّبة هي تتابع صور جزئية وتناسقها لإنتاج صورة واحدة موسّعة أو مكثفة ونرى ذلك في القصائد الكاملة كقصائد ابن الساعاتي والعماد الأصفهاني وغيرهم.

– الصورة الموسّعة :

وهي الصورة " التي تؤلف منظرا عامّا مشكلاً من مجموعة الصوّر الثانويّة المترابطة ضمن إطار خيالي محدّد الجوانب مهما اتّسع " [1].

ابن الساعاتي [2]:

هو الفاتح البيت المقدس بعدما تحامته الـــــدنا ومـــسودها

فضيلة فتح كان ثاني خليفـــة من القوم مبديها وأنت معيدها

فقد حققت الصورة الموسعة التناغم بين الربط بين عناصر الجمال ،ومن هنا تظهر قيمة الشعر ،والتعبير بالصورة – كما نعلم – يُعدّ خاصيّة شعريّة ، يهدف الشاعر من خلالها إلى تقديم عاطفة أو فكرة أو موقف على قدر من التعقيد.

فالصورة الشعرية عنده تعتمد على الإيحاء بالمعنى ،وتهتم بالوجدان والمشاعر ، وبما تثيره في نفس المتلقي من الأحاسيس النفسيّة.

---

[1] المصدر نفسه : 182

[2] ديوان ابن الساعاتي : 410/2 .

النتائج والتوصيات :

يوصي الباحث في ضوء النتائج التي توصلت إليها الدراسة ما يأتي:

– ظروف الحياة السياسية والاجتماعية في عهد صلاح الدين الأيوبي ساهمت في توجيه الشعر، وتنوع أغراضه في عهد صلاح الدين الأيوبي لذا اتجهت أغراض الشعراء في عهد صلاح الدين إلى الدعوة إلى تحرير القدس وباقي بلاد الشام.

– ألقت ثقافة الشعراء الواسعة بظلالها على تشكيلاتهم الفنية في بناء قصائدهم، ولغتهم الشعرية، وأساليبهم المختلفة، وفنونهم البديعية، وصورهم الشعرية، فكانت قصائدهم متوافقة مع شروط النقاد فيما يتعلق ببناء القصيدة، فأحسنوا الابتداء بالمقدمات التقليدية، وأحسنوا التخلص إلى مدح الناصر، والإشادة بانتصاراته، وأحسنوا الانتهاء، كما ظهر استخدامهم للصور الفنية في أشعارهم التي أبدعوا في تأليفها ووصف المعارك بدقة.

– اهتم الشعراء في عهد صلاح الدين بلغتهم الشعرية، فجمعوا بين اللفظ والمعنى في أغراضهم، مراعين مبدأ القوة والجزالة في الألفاظ بما يتناسب مع الموضوع.

ويرى الباحث أن العهد الأيوبي ما زال بحاجة للكثير من الدراسات الأدبية الهادفة التي تكشف عن الثروة الفنية الأدبية الكبيرة التي يحتويها ذلك العصر ولذا توصي الدراسة بتتبع دراسة الشعر في العصر الأيوبي، لما يحمل بين طياته الكثير من الانتصارات المشرفة للأمة الإسلامية.

وتوصي الدراسة كذلك بدراسة حياة الشعراء الذين لم يدرَسوا وبتحقيق دواوينهم الشعرية وكشف غبار الزمن عنها فما أحوجَ أمتنا في هذا العصر إلى مثل ذلك اللون الأدبي الذي ينير الدرب المظلم ويهديها لتحرير القدس من أيدي غاصبيها كما حررت في زمن صلاح الدين الأيوبي.

كما توصي الدراسة أيضا بالعمل على تحديد أنموذج من قصائد الشعراء في عهد صلاح الدين ودراسته دراسة أدبية تحليلية مما يسهم في إغناء المكتبة العربية بهذه الدراسات في العصر الأيوبي.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن أبي الأصبع، (1383هـ). **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن،** تحقيق : حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي– القاهرة.

- الأبيوردي، محمد بن أحمد بن إسحاق، (1975). **ديوان الأبيوردي،** تحقيق: عمر الأسعد، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق.

- ابن الأثير، ضياء الدين، (1962). **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق: أحمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة.

- ابن الأثير، محمد بن محمد بن عبد الكريم (1995). **الكامل في التاريخ**، تحقيق: أبو الفداء عبدالله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية.

- الأصفهاني، العماد، (1959). **خريدة القصر وجريدة العصر**، (قسم شعراء الشام) تحقيق: شكري فيصل، دمشق، المطبعة الهاشمية.

- الأصفهاني، العماد، (1983)، **ديوان عماد الدين الأصفهاني**، تحقيق: ناظم رشيد، مطابع جامعة الموصل.

- بدوي، أحمد، (1972). **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام**، القاهرة.

- بدوي، أحمد (1979). **أسس النقد الأدبي عند عبد القاهر الجرجاني**، دار النهضة،مصر.

- البنداري، الفتح بن علي بن محمد، (1980). **تاريخ دولة آل سلجوق** تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، دار الآفاق الجديدة.

– البيشاوي، سعيد، (1998). **تاريخ بيت بالمقدس**، ترجمة: يعقوب الفيتري، دار الشروق للتوزيع والنشر.

– ابن تغري بردى، أبو المحاسن جمال الدين الأتابكي، (1992). **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية.

– الجرجاني، عبد القاهر، (1961). **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمد محمود الشنقيطي، ومحمد عبده، مكتبة القاهرة.

– الجلياني، عبد المنعم، (1988). **ديوان المبشرات والقدسيات**، تحقيق: عبد الجليل عبد المهدي، دار البشير، عمان.

– ابن الجوزي، (1951). **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، تحقيق: حيدر آباد الهند، مطبعة دائرة المعارف العثمانية.

– ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر علي، (د.ت). **خزانة الأدب وغاية الأرب**، دار القاموس للطباعة والنشر، بيروت.

– الحموي ، ياقوت، (1979). **معجم البلدان**، تحقيق: أحمد رفاعي ،بيروت دار إحياء التراث العربي.

– الخطبا، فوزي (1991). **شعر ابن جبير (جمع وتحقيق)**، دار الينابيع، عمان، الأردن.

الرباعي، عبد القادر، (1980). الصورة الفنية في شعر أبيي تمام، منشورات جامعة اليرموك، اربد.

– الرقب، شفيق، (1979). **شعر الجهاد في عصر الموحدين**، دار فؤاد للنشر، عمان.

– ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، (1978). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر.

– رنسيمان، ستيفن، (1967). **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت.

– زغلول سلام، محمد، (1967). **الأدب في العصر الأيوبي**، القاهرة، دار المعارف.

– زكار، سهيل، (1984). **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية**، دار الكتب العلمية.

– ابن الساعاتي، أبو الحسن علي بن محمد، (1955)، **ديوان ابن الساعاتي**، تحقيق: أنيس المقدسي، مطبعة الناصرة، بيروت.

– ابن سناء الملك، (1996). **ديوان ابن سناء الملك**، تحقيق: محمد إبراهيم نصر القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر.

– الشاغوري، فتيان، (1976). **ديوان فتيان الشاغوري**، تحقيق: أحمد الجندي، المطبعة الهاشمية، دمشق .

– أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل، (د.ت). **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق: محمد حلمي، القاهر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

– ابن شداد، بهاء الدين يوسف، (2002). **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المسماة سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي**، تحقيق: أحمد أبيش، سوريا، دار الأوائل للنشر.

– العارف، عارف، (1969). **المفصل في تاريخ القدس**، عمان.

– عصفور، جابر، (1992)، الصورة الفنية في التراث النقدي، دار المعارف، القاهرة.

– عبد الجابر، جمال، (1986)، **شعر الجهاد في الأندلس في ظل بني الأحمر**، القاهرة.

– عبد الجابر، سعود محمود (2012) **ديوان ابن شمس الخلافة (543–622)**، دار المأمون للنشر والتوزيع.

– عبد المهدي، عبد الجليل حسن، (1988). **بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية**، دار البشير للنشر، الأردن.

– العسيلي، كامل، (1988). **مكانة القدس في تاريخ العرب والمسلمين**، عمان – الأردن.

– العك، خالد عبد الرحمن، (1961). **تاريخ القدس العربي القديم**، دار الفيحاء للنشر، دمشق.

– ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة، (د. ت). **ذيل تاريخ دمشق**.

– قطب الدين أبو الفتح، موسى بن محمد بن أحمد، (1961). **ذيل مرآة الزمان**،

– القرطاجني، حازم، (1966)، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس.

القيرواني، ابن رشيق، (1934). **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة.

– الكتبي، ابن شاكر، (1974). **فوات الوفيات**، تحقيق: إحسان عباس بيروت، دار صادر.

– ابن كثير، عماد الدين ابن الغدا إسماعيل، (1987). **البداية والنهاية**، تحقيق: أحمد ملحم وآخرون بيروت، دار الكتب العالمية.

– كيلاني، محمد سعيد، (1984). **الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي في مصر والشام**، القاهرة، دار الفرجاني.

– ابن منقذ، أسامة بن منقذ، (1960). **البديع في نقد الشعر**، تحقيق: أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.

– النتشة، رفيق، (1984). تاريخ مدينة القدس، عمان، الأردن.

– الهرفي، محمد علي، (**1979**) .**شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام**، بيروت مؤسسة الرسالة للنشر.

– الهيب، احمد فوزي، (1987). **الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب الشهباء**، الكويت ،مكتبة المعلا للنشر.

– ابن واصل، (1953). **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق: جمال الدين الشيال القاهرة، مطبعة جامعة فؤاد الأول.

- اليمني، نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن، (1991). **النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية**، تحقيق: هرتويغ درنبُرغ القاهرة، مكتبة مدلولي.